هاني فحص

مشروعات أسئلة قبل إيران كانت خائفة

(إشكاليات حركة التحرر العربي)

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

مشروعات أسئلة...
قبل إيران كانت خائفة
(إشكاليات حركة التحرر العربي)

دار التوجيه الاسلامي
بيروت - كويت

دار التوجيه الإسلامي

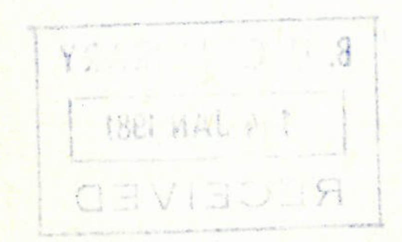
بيروت - كويت

بيروت خندق الغميق ملك عسيران

هاتف : ٢٩٢٨٧٢ ص. ب : ١٤/٥٢٤٨

كويت - صليبيخات ص. ب ٣١٠٣٣

هاتف : ٤٢١٧٧٤ - ٨٧٤٨٨٣



تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن المسلمين ، خيل للبعض منا أننا بين خيارين لا ثالث لهما ، فإما الإقتراب من فصائل حركة التحرر العربية ، أو القطع معها نهائياً . وفي حين أن الكثيرين ممن قطعوا كان قطعهم عملياً معادلاً للإنسحاب الذي أفاد منه الأعداء أولاً ... فإن قلة قد اختارت القطع دون أن تقع في الفراغ ..

لقد كان بإمكاننا أن لانكون عرضة لهذين الخيارين حصراً ، وإن يكن اختيار القطع قد وفر للانسحابيين فرصة البقاء خارج عملية الحساب عندما بلغت حركة التحرر العربية أزمتها ، دون أن يعفيهم ذلك من مسؤولياتهم عن كثير من سلبيات المرحلة .. فإن الذين اختاروا الإقتراب يحسون بأنهم مشمولون بالحساب ، وبعضهم ، ممن كان اختيارهم التزاماً بالأهداف والمهات المشروعة دون غيرها يشعرون بأنهم أقرب إلى موقع الشاهد منهم إلى موقع الحساب ، وان اختيارهم يعطيهم أهلية خاصة لهذه الشهادة ، سواء لصالح حركة التحرر أو عليها ، وجدارة في سؤالها والسؤال عنها ، دون أن يكون ذلك امتيازاً ... بل هو عبء في النهاية .

من هنا فإن هذا الكتيب لا يريد الوقوع في التبسيط ليعتبر نفسه « نقداً ذاتياً » خاصة وأن ذلك قد يفهم منه أنه نوع من الموافقة المتأخرة على الخط السلبي الهروبي الذي كان يطمح أو يطمع بأن يحدد مسار العمل الإسلامي .

وإذا كنا لا نرتضي المكابرة صفة أو مسلكاً فإننا نقر بأن اختيارات عدد منا لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية ، وبالمقاييس الإسلامية ذاتها .

وإذا كانت النية ، مهما خلصت ، لاترفع المسؤولية ، فأن الهروب ليس مبرراً بالأصل ، حسنت النية أم ساءت .

ويبقى أن الكثير مما وقع فيه حسنو النية من التباسات ، إنما كان في معرض الرد على الخط الهروبي وبتأثير منه .. ويبقى هذا الخط مرفوضاً ومداناً ، قبل ثورة الإسلام في إيران وبعدها .

لقد كتبت مرضوعات هذا الكتيب ونشرت في عدد من الصحف اللبنانية – أكثرها في السفير – على مدى سنة ونصف السنة من عمر الثورة الإسلامية في إيران ، في محاولة لم تكن متيسرة قبل هذه الثورة ، لطرح كل الأسئلة التي كان محرماً طرحها ، وجاءت الحرب اللبنانية لتؤكد على ضرورة المجاهرة بها ، ثم جاءت الثورة الإيرانية ، فانحلت عقدة الخوف من التخوين ، وأصبح الكثير من الأسئلة يتضمن إشارة ما – قوية أو ضعيفة – إلى جوابه .

بتركيز شديد تريد هذه الصفحات أن تقول : إن كل كلام عن إمكانية الإسلام أو غيره في هذه المنطقة أصبح الآن موصولاً بالمثال الإيراني ، سلباً أو إيجاباً ، ولقد انتهى عهد المصادرة بالرجعية والتقدمية بعد ثورة المستضعفين .

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا »[1] .

هاني فحص

---

١ – البقرة – ٢٨٦ .

أوائل الأسئلة

لسبب ما .. قد يكون إيران أو الحرب اللبنانية أو غيرها ، أخذت تنحسر موجة الإرهاب التي عانيناها طويلاً ، يوم كنا ، قولاً وكتابة ، أمام خيار واحد وحيد ، الأمثولة ، التي قد يعترينا وهم العافية فنلامسها بتغيير في الشكل أحياناً ، لنقترب من واقعنا ، ولو شكلاً .. فنسقط .. ولا يبقى من بديل سوى الصمت ، الصمت حد العمى ، ضماناً للنجاح في الصف الوطني ، رغم أن الكثيرين قد لا يساعدهم تركيبهم الفكري وأمانتهم على استظهار الأمثولات .

لماذا كان ذلك سهلاً ومتوقعاً باستمرار في فكرنا عموماً والسياسي منه خصوصاً ؟

قد يكون تفسير ذلك ، هو أن الإنخراط « المذهبي » ، فكراً وسياسة ، يتم دائماً على هامش حركة التاريخ ، أو في ذيلها ، على

جلد الشعب والأمة والمجتمع والجماهير .. ألخ . لا في عمقها حيث شروط الفعل الثوري ، تتشابك وتفترض منهجية علمية تتجانس معها ولا تجافيها ، لتكون علمية ، وحيث قوانين « الحركة » ، تاريخها ومؤشراتها في حالتنا العربية واضحة الخصوصية حد الصراخ.

إن الإنخراط المذهبي اللعين إياه ، يستدعي أجهزته القمعية أيضاً ، ونوعاً من محاكم التفتيش الخاصة به ، بما تقتضي من قدرات وقرارات .. الخوزقة والإحراق وصكوك الغفران ألخ. والعلامة الفارقة الوحيدة هنا ، هي أن محاكم التفتيش الحديثة تخرج من الدين في مثاله السكوني التبريري والقمعي في النتيجة .. ذلك المثال الذي لا ترى غيره ، لأن « الخواجة » لم ير غيره .. تخرج منه بهاجس ضرورة التباين معه .. فتقع في التجانس ، إذ تأخذ منه ما هو مرفوض فيه أصلاً ، بل ومفترض أن يكون مبرر الخروج عليه .

* * *

دون الوقوع في وصف تاريخ هذه المحاكم التي ابتدأت تنقض تاريخها ، يجب التأكيد على أمر بالغ الخطورة ، وهو أن الذين يعلنون فرحهم لهذه الحال التي وصلنا إليها ، مدينين بذلك كله لإيران والحرب اللبنانية وغيرها .. يهمهم أن يؤكدوا أنه ليس في نية الضحايا أن تثأر ، علماً بأنهم لا يرتاحون إلى هذه التسمية « ضحايا » كثيراً ، بل يعتبرون أن مرحلة قد انقضت أو شارفت لتبدأ مرحلة أخرى قد يكون لها « استتباعاتها » أيضاً .. وليست

هذه دعوة لشراء الأسهم والسندات ، بقدر ما هي رغبة لتأسيس « المزيج » .. مع الإصرار على أن هناك عموداً فقرياً في المسألة .. حوله ومتصلة به ، بادئة منه ، تبدأ المشاغل والهموم، ثقافة وسياسة. وكل ابتعاد عنه ، أو محاولة للإتصال به من خارجه هي ذهاب في ظلام آخر .. كالذي كان .

* * *

من التعميم إلى التحديد

ألم يكن مفترضاً ، في التاريخ العربي الحديث ، أن يتولد فكر قومي ينجو من أمراض التغريب ، ويسعى إلى التطابق مع الذات ؟ بدل أن يحشرها في أوصاف غيرها ... حيث الأمة العربية ، تكويناً ، والقومية العربية وعياً لهذه الأمة في واقعها ومصيرها ، تفترض مقداراً كبيراً من التمايز مع الغير ، وفي وعي هذا التمايز تكمن شروط النهوض .. الأمر الذي لم يحصل ، فظل نهوضاً في نجاحه وكبواته معاً ، مفصولاً عن ذلك الوعي باعتبار أنه لم يكن وعياً للذات بقدر ما كان وعياً بالآخر ، وسعياً إلى التماثل معه .. وصفاً ... حيث أخضع تاريخ المسألة القومية العربية لمعطيات تاريخ آخر ، مما استدعى بالتالي « الحزب » الذي لم يكن عربياً على العموم، وتحديداً في عملية الإستبدال التي مارسها . وإذا كان تاريخ الأمة العربية ، هو تاريخ الأمة ، فان النخبة كانت الإستجابة ولم يكن

تميزها عن المجموع أكثر من تميز وظيفي ، لم يمكنها من الإنفصال عن ذلك المجموع إلا عندما كانت تصر على السقوط ... « وإنما اجماع المسلمين والعدة ليوم الدين العامة من الناس ، فليكن صفوك إليهم وميلك معهم » .. من عهد علي بن أبي طالب (ع) إلى مالك الأشتر .

إن عملية الإستبدال التي حصلت جعلت « الحزب » نخبة مفصولة عن المجموع والتاريخ تبعاً وبالضرورة ، كان الحزب مترجماً مما استلزم حالة من التجويف لم يكن معها جائزاً للقوميين أن يقعوا في الشعور بالدونية ، رغم النشاط اللفظي المكثف والذي حاول أن ينفي ذلك فلم يخفه .

* * *

بوضوح أشد ...

أليس أكثر من مجرد الخطأ ، ذلك الذي ارتكب في حق أمتنا وأتى متناغماً مع متطلبات الثورة المضادة ، الممتدة في تاريخها ؟

أنها كانت تقاس على غيرها .. « حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل » .. على تميزها . فيغض الطرف عن مميزاتها الكبيرة والصغيرة معاً ، والتي بمجموعها تشكل نسيجها وتحدد مسار تاريخها . وتنفتح العيون والأقلام على العام ، الذي يكاد لعموميته ، أن يصبح ثانوياً. حتى وقفنا من إنتاجنا الفكري والكثير من أدبياتنا الثورية ، على

أمة لا تكاد تشبه أمتنا في شيء . وعندما كان يشتد نزوعنا إلى التواصل مع تراثنا ، في محاولة لتحقيق الذات ، مشروعة هدفاً واتجاهاً ، خاضعين في ذلك ، للعلمي والموضوعي في قوانين الحركة والتطور ، كان مثقفونا ، والثوريون منهم خاصة ، يقدمون لنا تشكيلاً لتاريخ وتراث مشطوب ، حتى اعترانا ، ولفترات طويلة ، شعور بأننا نركب مخاطرة جسيمة ، إذ نقدم على النهوض الثوري ، بكل الضرورات الوطنية والإجتماعية التي تفرضه ، من واقع الوهم الراسخ بأن ثورتنا خيارها أن تكون بلا تاريخ ؟

وإذا ماكان الإسلام ، قدكون الإطار الذي نمت فيه وتبلورت من خلاله شخصية أمتنا ، فقد كادوا أن يوقعونا في الحتم القاطع ، بأن الإسلام هذا لا يمكن أن يشكل تاريخاً لثورة تستمر متواصلة معه . ومن الطبيعي أن يحصل هذا الإشكال إذا ما قدم تاريخ أمة ما، لأجيالها ، على أنه مجموعة الإستثناءات المرذولة ، في حين تكون قاعدة هذا التاريخ قد غطيت بالمزيد من لهفات التقليد والتغريب والقياس الخاطىء ، منطقاً وواقعاً .

ومن يستطيع ، وهو يصر على المعاصرة ، ويحمل هموماً مستقبلية ، أو يدعيها ، أن يرضى لنفسه ولأمته تاريخاً شواهده تلك القائمة الطويلة من المظالم والخيانات ، والبنى السياسية المهترئة في التاريخ الإسلامي ؟؟

لقد أتاحت هذه الحالة من عدم الرضا العام ، في ساحة الثورة وإطارها الجماهيري الفرصة أمام الكثير من الأطروحات الثورية

شكلاً ، لتستمر في عملية الشد والإبعاد خارج التاريخ ، متيحة بذلك ، وبنفس القوة ، لقوى التحجر والجمود والإستعمار معاً ، أن ترفع عقيرتها بالدعوة المشبوهة إلى الهجرة من الحاضر باتجاه الماضي .. اتجاه القبول به ، قبولاً بمساوئه أكثر منه قبولاً بمحاسنه.

الثوريون الحقيقيون ، وحدهم كانوا يحسون بوطأة المشكلة . يصرون على التقدم ، ويرون في الأصالة شرط المعاصرة .

وإذا لم نذهب بعيداً ، فقد كان من أمثولات الثورة الفلسطينية ، أنها شكلت مدخلاً لتصحيح هذه الوضعية . وفي إصرارها على الإستقلال والتميز ، حتى ضمن علاقاتها وتماثلها العام ، مع حركات التحرر الأخرى في العالم ، شكلت تاريخاً لقراءة جديدة في تاريخنا القديم والحديث على السواء .. فاستطعنا أن نقرأ ثورة العشرين في العراق وثورة الجزائر ومقدماتها ، بل وحاضنها الفكري في الثلاثينات .. ألخ وأصبح لدينا شعور مطمئن إلى أننا في توجهنا الثوري نحو الأرض والإنسان ، نحو الوحدة والتحرير والعدالة ، لسنا مقطوعين من زمان غير زماننا أو تاريخ غير تاريخنا ، بل مستندون إلى تراكم طويل واع من الحركات الثورية في الماضي البعيد والقريب على السواء ... هذه الحركات التي كان الإسلام وما يزال أماً لها وأباً .. ومن هنا ... عندما يفاجىء الشعب الإيراني الكثيرين بثورته ، لا يفاجئنا نحن ، بل يضيف تأكيداً جديداً أو كبيراً إلى قناعتنا بأن الأصالة شرط المعاصرة ، وبأن الإسلام ليس مرحلة ، أو حالة في تاريخ تنقضي بانقضاء لحظتها ،

لتخلي مكانها تماماً ، لما يعاكسها أصلاً واتجاهاً . بل هو إمكانية إمتداد واتصال أيضاً ، تنقلها إلى الفعل ، إلى حيز الواقع ، واقعنا أيضاً ، ضرورات كامنة ، لا في الإسلام كبناء فكري وحسب ، بل في الواقع نفسه .. وبأنه — وهذا مهم جداً — شرط التعامل الصحي مع الآخر ، يبدأ من الذات ليعود إليها في حركة تحكم نتائجها وتحددها الحركة داخل الذات نفسها لا العكس .

إننا هنا نعترف .. بأننا مع الثورة الإيرانية ، بمميزاتها وخصائصها ، قد أقلعنا وإلى الأبد عن الوقوع في وهم الإنقطاع عن تاريخنا بحجة أن استدعاءه يتنافى مع إرادة التقدم ، بذلك نكون قد وضعنا حداً لدعوة الهجرة إلى الماضي ... وأصبحت لدينا قناعة قاطعة بأن أفضل علاقة تقيمها أمة مع تراثها ، هي أن تضيف اليه ، لا أن تعيش عليه .

* * *

ولعله أكثر من خطأ . وقوع قوانا الثورية في مفهوم التخلف كما أريد له أن يسود(١) .. من هنا أو هناك .. الغير في كل حال.. آخذاً في اعتباره مقياساً واحداً في التحديد .. إما مقياس الإنجاز في المستوى التكنولوجي .. والتحديث بالمفهوم الغربي نفسه ... وإما مقياس التغيير ، الذي قد يكون مطلوباً ، بل هو مطلوب ، ولكنه ليس كافياً ، في علاقات الإنتاج... ألخ..مغفلاً بذلك— أي مفهوم التخلف والتقدم — أن لكل أمة ، أو لبعضها ، كأمتنا مثلاً ، مفهومها الخاص للتخلف والتقدم ، والذي لا بد ، علمياً ، من

أن يكون منسجماً مع بنيتها الداخلية وشروط تكونها وتطورها ..
بذلك لا يعود هذا المفهوم محايداً ، وإن كان يحتفظ بموضوعيته ،
وموضوعيته في حالتنا تقتضي أن نعتبر أن الإطار الروحي والتكويني
النفسي والثقافي والعاطفي أيضاً ، في شخصية الأمة ، أساس في
القياس والحكم .. ومن هنا ، وبهذا المعيار تسقط فعلاً بعض
محاولات التحديث المحكومة بالإعتبار الخاطىء إياه ، وتأتي ثورة
الشعب الإيراني لتؤكد هذا السقوط وتبشر بنهوض جديد لمفهوم
تقدمي جديد .. قدرته على التعميم ، في منطقتنا ، لم تعد خافية على
أحد ، ولعل ذلك هو ما يفزع الكثيرين ، ويجعلنا أكثر شوقاً إلى
إنجاز مشروع الثورة في إيران .

* * *

من الأمور الواضحة في الثورة الإيرانية ، بل لعله أوضحها
على الإطلاق ، هو أن الحضور الديني الإسلامي فيها حضور
كامل ، لا حضور مشاركة فحسب .

هو حضور في مستوى القيادة التي تعطيها المرجعية صفتها
الحاسمة ، لما تعني المرجعية من اتساع المسؤولية الدينية أساساً
وشمولها ، ولما هو معروف عنها من كونها — المرجعية — محصنة من
الداخل فكرياً بشكل لا يسمح باختراقها أو التداخل معها ، إلا عن
طريق القمع .. ومؤقتاً ...

وهو حضور في مستوى المشروع السياسي الذي يحمل في
تضاعيفه قدراً كبيراً من رغبة التطابق مع إرادة الشعب الإيراني

وطموحاته ، وربما كان اتساع القاعدة الشعبية وصلابتها المميزة
تعبيراً عن التوافق بين هذه الإرادة وتلك الرغبة .

من هنا ، هل يعود من الجائز إعادة ما كان يقال عادة ، في
تفسير وتحليل مشاركات دينية سابقة ؟ خطأ أو صواباً ، أليس في
ذلك الكثير من التعسف ؟.

وإذا كانت تلك حقيقة قد أصبحت في قوة البداهة ، فإن
البعض ، مكابراً ، ما يزال يجد صعوبة في عدم الوفاء لتراثه ،
ونمط تعاطيه مع المشاركات الدينية في الأحداث الوطنية ، كبيرها
وصغيرها على السواء .

لقد كانت هذه المشاركات مشغولة بهم واحد ، هو الوصول
مطلبياً أو وطنياً إلى الهدف ، أو تيسير الحركة وتكثيفها في هذا
الإتجاه ، متحملة في ذلك الكثير من المشاق والمصاعب ، ملقية جانباً
برغباتها الفئوية ، مؤجلة ضمناً ، زمن الحساب والقسمة الإيديولوجية ،
وحتى السياسية ، ملتزمة في ذلك كله ، بضرورة الصدق الجبهوي ،
قولاً وفعلاً ، كشرط للوصول إلى الهدف العام .

في المقابل ، كان البعض(٢) مشغولاً بالحصاد الإيديولوجي ،
قبل انعقاد الحب ، معتبراً نفسه النهر الواسع والقطب الجاذب ،
الجاهز للتوسع والإستيعاب باستمرار ، وما يستجد من جداول
وسواق وآبار ، إنما هو في النهاية ، في التحليل النهائي ، في
المحصلة .. الخ مجرد إضافات إلى ذلك النهر .. المذهب ..باعتباره
المصب والمصير الأبدي ، والإطار الذي يضمن ويحكم عملية

التراكم الكمي والإنشطارات والتغيرات الكيفية .. تبعاً لذلك .

من واقع هذا اليقين ، المبالغ فيه ، والغيبي في جوهره(٣) ، كان هذا البعض يصنف المشاركات الدينية تحت واحد من عنوانين اثنين :

أ ـ عنوان الإستدراج ، والمقصود به استدراج رجل الدين إلى المشاركة والإنخراط في الحدث . والتصنيف تحت هذا العنوان يتضمن ادعاءً واضحاً بأن الطرف السياسي ، المدعي أنه الفاعل والغالب في الحدث ، قد مارس بشكل مباشر أو غير مباشر ، نوعاً من التوريط الواعي ، معتمداً على قدر مؤات من الغفلة أو « الهبل » لدى الطرف المشارك أو المستدرج « رجل الدين » .
ب ـ عنوان التنور ... والتنور هنا ـ عنواناً ووصفاً ـ يتساوق في الذهنية السياسية التي تقترف التصنيف ، وهي يسارية في الأعم الأغلب ، يتساوق مع « الهرطقة » بمدلولها العربي ، أي الزندقة فكرياً وسلوكياً .. لدى رجل الدين إياه .

لم يكن هذا التصنيف عفوياً ، بل إنه يرتكز إلى حكم « واع» وجازم بأن الفكر الديني ، وإرادة رجل الدين في الوفاء لقيمه الدينية يشكلان مانعاً يحول دون نزول رجل الدين إلى الواقع ليسهم في تغييره ، ولذا فإنه عندما يفعل ، يكون قد مارس انفصالاً ما... ويحدث أن يصر رجل الدين على انتمائه وتمسكه بالتزامه الديني دليلاً ومرشداً .. ويؤكد أن ما يحدث ليس انفصالاً ، بل هو تجاوز من جانبه ، للفوارق الإيديولوجية والسياسية والسلوكية ،

استجابة لضرورات المرحلة ، الوطنية والإجتماعية .

لقد كان هناك ، باستمرار ، قصور في الفهم والتفسير من خلال الوقوف عند تهمة الهرطقة ، أو امتداح المرونة الشخصية ، حيث تصبح هذه المرونة ، المفترضة تعسفاً ، والممتدحة ، حد التشهير والإحراج ، في مفهوم الممتدح ـ بالكسر ـ مساوقة للنفاق الفكري والسقوط الأخلاقي معاً(٤) .

والسؤال ... ألم يكن من الأفضل أن يتم التماس التفسير في مرونة الفكر الديني نفسه ، والتي تجعله باستمرار يقدم الصالح العام على الهاجس الفئوي ؟ .

لو كنا قد التمسنا ذلك منذ زمن قريب أو بعيد .. لما أربكتنا الثورة الإيرانية .

(١) ولكن ما تدعوه مجتماعتنا الغربية الحالية (نمواً) أو تطوراً إنما يعرف بمعايير أضيق ، وهي معايير وحيدة الجانب ، معايير اقتصادية : الازدياد الكمي في الإنتاج وفي الإستهلاك دون الرجوع إلى مشروع إنساني أو إلى صفة الحياة ونحن إنما نقارن اليوم ، ونصنف تسلسل المجتمعات والشعوب بحسب هذه المعايير التي تعتمد الناتج القومي « الخام » .
وهذا التعريف للنمو يستند إلى موضوعة ترى أن الإزدياد الإقتصادي هو المعيار الوحيد لتقدير جميع أشكال الحياة الإجتماعية وأن هذا الإزدياد لا يعرف إلا تعريفاً كمياً ، بصرف النظر عن أية غاية انسانية وبالنجوع التقني وحده ، ولو كان نجوعاً مدمراً وبالتنظيم الإجتماعي ولو أنتج الإضطهاد والإنخلاع ..
روجيه غارودي – حوار الحضارات – دار عويدات – بيروت ١٩٧٨ – ص٤٤

(٢) قد لا يكون بعضاً بالدقة ، قياساً الحكم السياسي ، وإن كان كذلك قطعاً قياساً الى الفكر والكيف الشعبي .

(٣) الغيبية في الفكر الديني لها ما يبررها في هذا الفكر أصلا ، باعتباره في أساس بنيته أما في غيره فهي مرض قطعاً .

(٤) هل هي صدفة أن نجد من ينعى على أحد المثقفين مثلا ، الرفيق الشيخ سابقاً ، غلطته التاريخية في الخروج من المؤسسة الدينية والزي الديني ، ومن ثم انتقاله علناً إلى الحزب الشيوعي ؟ ويقال : بأنه كان مفترضاً فيه أن يكون «شيوعياً» داخل المؤسسة ليتمكن من الداخل من إشلعة فكره « النفاق » وسلوكه «السقوط». بالمعايير الدينية طبعاً .. وإذ يصبح راسبوتين أو يزيد بن معاوية ، النموذج المطلوب ... وعبد الخالق محجوب ، شيوعي ، لم ينفصل عنده وعي الذات عن وعي الضرورة ، فكان ، سياسياً في الأقل ، يرى أن المسافة التي تخلقها المذهبية الماركسية ، وهي تغريب في النهاية ، بين الماركسي في مجتمع مسلم وبين هذا المجتمع إنما تعني إلغاء لشروط التأثير والفعالية ... ولعله بامكاننا أن ندرج في قائمة الشواهد جملة من الأسماء والأحداث اللبنانية منها على سبيل المثال : السيد علي مهدي ابراهيم .. حركة المحرومين والإمام الصدر ، انتفاضة مزارعي التبغ الخ .. وإني أذكر هنا فيما يخصني شخصياً أني عانيت من تصنيفي مرة هنا ومرة هناك .. دون مبرر في الحالين ...

وما زال يحضرني سؤال ذلك الرفيق في قرية جنوبية بعد محاضرة في حسينيتها : هل أنت مؤمن أو ملحد ؟ واكتشفت أنه يفترض سلفاً أنني ملحد ، وإلا فكيف يكون لدي اهتمام وطني ؟
وآخر مازحته سائلا إن كان صائماً .. فضحك ضحكة عريضة وغمز بطرف عينه وقال : بيناتنا أنت قابضها جد ؟
وهل هي صدفة أن يلتقي الإنطباع اليميني هنا مع الإنطباع اليساري قياساً بقياس؟ هل هو مجرد لقاء بين انطباعين أم أن هناك أساساً واحداً لها ؟
... لقد استنتج أحد الأصدقاء أن أحداث إيران قد تولد في لبنان ما يمكن أن يكون طموحاً إلى خط سياسي مماثل للخط السياسي الإسلامي في إيران واعتبر ذلك في منتهى الخطورة ... فالمطلوب لرجال الدين في العمل الوطني والإجتماعي في بلادنا أن يظلوا مجرد معازيم ، مدعوين ، أعضاء شرف ، شخصيات وطنية ألخ . وإلا فالجميع يصبحون عندئذ ضد تدخل رجال الدين في السياسة !!!

أيُ خيَار أيدُيُولوجي...
أيّة إسْتقلاليّة ثقافيّة؟

يبدأ البعض كلامه عن الثورة الإيرانية ، منفعلاً ومخلصاً ، من نقطة كونها نفياً لحركة التحرر العربي جملة وتفصيلاً . إن الاستقراء الكامل والمنصف لحركة التحرر العربي ، تاريخاً ورؤية يبرر هذا النفي ، دون أن يلغي المحذور الذي يترتب عليه .إذ هو عملياً يؤدي إلى غير القصد والهدف ، وينتج فيما ينتج عصبوية ضيقة ، مبررة بأسباب مقبولة وغير مقبولة ، من شأنها أن تلتف على حركة التحرر العربي ، وترسخ لدى أطرها ، سلوكية تبريرية للخطأ قبل الصواب ، مما يمكن أن يشكل أرضية لنمو أخطاء قاتلة مستقبلاً ، ليس أقلها الوقوع في .. أو العودة إلى التبعية للاجنبي على قاعدة من الالتزام القومي ، الذي يكف في هذه الحال عن كونه مشروع استقلال ليصبح غطاء للتبعية .

من واقع اللقاء الكامل مع الثورة الإيرانية . ومن نية في التعامل معها مستقبلاً طبقاً لهذا الشعور ، نرى أن الأجدى لنا هو أن نقف

عند نقطة التمايز بينها وبين حركة التحرر العربي . على أن الوقوف
عند ذلك التمايز يتضمن اقراراً بمستوى من التماثل بينهما ، وإلا
أصبح التمايز نفياً ، وإذا لم نكن مدعوين أو معنيين أساساً بشطب
هذا التمايز ، فاننا مدعوون لرفع درجة التماثل إلى حد أن ندخله
في نمطية ما ، تصبح فيها الوحدة مظهراً ومضموناً هي الحكم وهي
الطابع المميز ، وتظل التمايزات في حدود الجزئي والخاص . وفي
كل ذلك نرانا مدفوعين ، بحكم النتائج عربياً وإيرانياً ، إلى
الاقتراب نحو الثورة الإيرانية ، لأن ذلك يتساوق ثورياً مع نية
وضرورة الخروج من السلبيات التي اعتورت حركة التحرر العربي
ايديولوجياً وسياسياً .

والخلاصة أنه بعد انتصار الثورة الإيرانية ، في أولى مراحلها،
أصبح بامكان حركة التحرر العربي أن تتحرك باتجاه خيارات
إيديولوجية وسياسية ، لم تفعل الثورة الإيرانية أكثر من أنها كشفت
عن كون هذه الخيارات ، كانت وما تزال وسوف تبقى ، شرط
التماسك العربي وشرط الوصول العربي ، ودون تحقيقها تبقى
الثورة العربية مشروعاً يقف عند حدود الرغبة ولا يتخطاها ، بل
يجعلها قابلة للاختراق والاحباط من داخلها وخارجها على السواء.

لسنا هنا في صدد التحريض المتسرع والمبتذل ، على الخروج
من علاقاتنا ، صداقة وتحالفاً ، بل إننا ، بالتحديد ، في صدد
التأكيد على ضرورة المجاهرة بالاستقلال ، وفي مفهومنا أن
الإستقلال لا يتطلب في واقعه موقفاً من الاعداء ، لأن العداء هو

العلاقة وهو الموقف .. إذن فالاستقلال ، ليتحقق مفهومه ، ليكون
له مدلوله ، حتّى اللغوي ، لا بد أن يكون استقلالاً عن الأصدقاء
أولاً وبالذات .

إن هاجس الاستقلال عن الخصوم ، سابقاً ، الاتحاديين
التتريكيين أولا ، والمستعمرين الأوروبيين ثانياً ، قد أوقعنا في
ردود الفعل التي جعلتنا ، في محاولة الرد على التتريك نخرج حتى
من المشترك ، أعني الاسلام الذي هو أساسنا أيضاً ، لمجرد أن
الخصم يقف على أرضيته مموهاً ، فكان مشروع الرد قومياً أكثر
منه قومياً ، مما جعله في النهاية يتسع لقبول المستعمر والمراهنة عليه،
وتأتي الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين شاهداً واضحاً
هنا .

وعندما تحققت خيبة الأمل ، غير المبررة أصلا ، بالمستعمر،
كان الرد القومي عليه ، امتداداً له في الكثير من ملامحه ومضامينه،
أو انفعالاً حدد المستعمر ، لا نحن، سماته ومظاهره . وكان الخروج
من الاسلام ثانية ، على نفس الطريق الذي خرج منه النظام
الشاهنشاهي في إيران ، من رضا خان إلى محمد رضا بهلوي ..
كان منطقياً إذن أن تسقط من يدنا إحدى أهم أوراق الاحتجاج
على توجه النظام الايراني .. بل إن الموقف القاطع الذي أسسه
عبد الناصر مع إيران الشاه ، كان لجماً مؤقتاً للموقف العربي ،
محكوماً بحجم عبد الناصر الشخصي ، ولم يلبث أن انحل هذا الموقف
بعد ذهاب عبد الناصر وعلى مدى سنوات قليلة،لخلل أساسي هو

عدم استناد الموقف إلى الأرض الإيديولوجية التي تبرره وتعمقه وتعممه عربياً فتؤمن استمراريته .

في نفس الوقت ، في الخروج الثاني من الاسلام ، وضعنا في يد بعض القوى المضادة في الداخل العربي ورقة الاسلام لتلعبها وتحولها من مانع إلى ساتر لتوجهاتها ، فاستندت إلى الاسلام في معاداتها لحركة التاريخ العربي وولائها للمستعمر .

من هنا ، فان الدعوة للاستقلال الإيديولوجي الآن ، لايجوز أن تكون أحادية الجانب ، فيصبح الرد على التحديث التشويهي خروجاً من الحداثة وانسحاباً من العصر إلى عصور أخرى ، وإذا كان هذا الاتجاه الارتدادي ، غير النهضوي محكوماً في الأساس بموقف رجعي يميني ، ويمثل في واقعه رداً على إرادة الاستقلال بالوصول بها إلى درجة من التأزيم لاحباطها في النهاية وتبرير الخروج عليها ، فان ذلك لا ينتقص من أهمية أن يكون الاستقلال الإيديولوجي كاملاً غير منقوص . هنا نجد العذر في جانب الحركة الاسلامية في ايران ، عندما تقف أمام منظمة « مجاهدي خلق » التي لا تترك مناسبة إلا وتؤكد اسلاميتها ، فتعتبر الحركة الاسلامية أن المنظمة تمارس لوناً من الفصل التعسفي ، غير العلمي بين المادية الجدلية والمادية التاريخية ، وتعتبر الحركة الاسلامية أن اكتساب الصفة الاسلامية ، لا يمكن أن يتم من خلال تجزئة الاختيار ، بل ان الاسلام ، انتماء والتزاماً خياره الوحيد الشمول.

هل يعني ذلك ، أي الشمول في قبول الاسلام أيديولوجياً ،

أن نمارس النفي القاطع لكل ما هو خارج عنه ؟.. هنا نصبح مضطرين إلى توليد مفهوم جديد للحداثة يتصل بالفكر الاسلامي ولا ينفصل عنه ، وإذ نفعل نجد أن الأساس في هذا المفهوم هو أن الاسلام ينظر إلى أي نتاج فكري بمعيارية إسلامية ، أي يراه من الداخل ، منتجاً ضمن ظروف زمانية ومكانية وشروط تاريخية تدخل في أساس بنيته ، بحيث لا تبقى بعداً برانياً فيه يسمح بنقله والتعاطي معه . أساساً وسقفاً ، كأي سلعة منتجة ومحايدة ، ومن هنا لا يجوز التعاطي معه ، اسلامياً ، إلا في حدود الابقاء على الفاصل « السميك » فرضياً ، بين المناهج .. وهكذا تستوي منهجية التعامل الاسلامي مع الانتاج الفكري الآخر ، بصرف النظر عن مصدره ، وتكون واحدة في التعاطي أخذاً ورفضاً ، سواء في ذلك منتجات البرجوازيات الديمقراطية وغيرها .

والمنهجية الاسلامية ، في هذه الحال ، وضمن الراهن أيضاً، لن تستتبع بالضرورة قلباً للمعايير أو انقلاباً في الموقف بحيث يستوي الصديق والعدو تعاملاً ، على أن المفهوم الاسلامي للحداثة لايتأتى، فقط ، من عملية المقايسة على الغير ، بل في الأساس يتحدد هذا المفهوم من داخل الاسلام . وإذا كان لكل فيلسوف ميتافيزيقاه الخاصة ، فان من حق الاسلام أن تكون له ثوابته . هذه الثوابت يمكن لنا الآن ، بعد ثورة ايران ، أن نفتح نقاشاً طويلاً حولها، شرط أن نبدأ من البديهيات وبالمفهوم الأرسطي إياه،وفي تقديري أن أضعف الاحتمالات هو أن نصل إلى اقرار بالتعايش . على

أن هذا الاقرار لا يعكس حاجة اسلامية بأي حال ، واما في غير الثوابت ، فان في الاسلام متسعاً للاجتهاد ، الذي لا يجوز أن يفهم في إطاره الفردي ، كاعادة للنظر افقاً في الدليل الشرعي الفرعي ، إن مؤشر الاجتهاد يذهب دائماً باتجاه العمق ، شرط أن لا نكرر أيضاً الهاجس السطحي الخاطىء ، هاجس تطوير الاسلام ليلائم العصر .. إن ذلك مدخل آخر للوقوع في ثقافة وايديولوجيا الآخرين ، يتحول معه الاسلام إلى وحدة قياس مطاطة ، نبقى نشد فيها حتى تنقطع ، أو حتى تصل إلى اسلام شاه ايران مثلا .. أو نضغطها حتى تتحول إلى كتلة ضئيلة في قبضة بعض الأنظمة العربية .

وإذا كانت النظرية ، لا تقاس خطأ أو صواباً ، بمجرد تماسكها المنهجي وبنائها المنطقي ، بل بمعطاها ومردودها العملي ، فان الانحياز الاسلامي الكامل لمسألة العدل الاجتماعي ، والممارسات التي تمت في هذا الاتجاه ، تعطي للاسلام شأنيته في تحديد مسار حركة التاريخ والمجتمع ، بفارق يسجله الاسلام لصالحه ، وهو تحويل مسألة العدل إلى اختيار يبعدها عن الجبرية ، ويتيح الفرصة لحفظ ذاتية الانسان ، فرداً ومجتمعاً ، ضمن عملية التوجيه باعتبار أن هذه الذاتية ، إن لم تحفظ ، يصبح الغاؤها مادة قابلة للتفجر يبدأ منها الانحراف والتحريف والخروج من النقيض إلى النقيض .. وهنا يصبح بمستطاع الاسلام أن يضرب صفحاً عن المادية التاريخية دون أن يقع في الفصل التعسفي من جهة ، ودون أن يقع في تسييب حركة التاريخ من جهة أخرى .

وإذا كانت الحرية ، بمفهوم يقترب من المفهوم الليبرالي في في خطوطه العامة ، هي الشرط والمناخ الذي تحفظ فيه هذه الذاتية فان تحديد الاسلام لها ، موقعاً ومسؤولية ، يشكل ضمانة دون انفلاتها أو بقائها مفتوحة على احتمالات السقوط والتوليد الدائم للازمات الخانقة والمدمرة على مستوى الفرد والمجتمع .

ماذا سيفعلون في إيران .

يقطعون يد السارق أم لا ؟

هنا بالذات يصبح الاعتراض على قطع يد السارق ، اعتراضاً على الشكل لا يطال المضمون . لأن قطع يد السارق مضموناً هو العقوبة التي يراد لها أن تكون رادعاً يسيج حرية الفرد بعد أن تكتمل حرية المجتمع أصولاً وفصولاً .. بعد أن يترسخ العدل الاجتماعي حقاً وحاجة على قاعدة من التكافو وضمن دورة انتاجية موجهة .. ويصبح السلوك الفردي الخارج على السلوكية المفترضة في حالة العدل اعتداء على المجتمع وعلى العدل أيضاً .. عندئذ تصبح العقوبة احتمالاً .

في طريق الاستقلال الايديولوجي هذا تسير ثورة إيران .

أو لنقل : من هنا تبدأ ثورة ايران لتنتهي في الاستقلال الثقافي والسياسي والاقتصادي مع التأكيد على أن الاستقلال الايديولوجي هو الشرط لما تبقى ، يليه ويتفرع عنه .

قلنا في البداية : إن هناك تماثلاً عربياً ايرانياً ، وقلنا بأننا

مدعوون إلى رفع هذا التماثل إلى نمطية ما .. هل يعني ذلك طلباً باختيار ايديولوجي لحركة التحرر العربي ؟

أعتقد أن ذلك مسموح لنا به . طالما أن هناك على مستوى حركة التحرر العربي ، مشروعات ايديولوجية ، لم يحصل اليقين حتى الآن ، نظرياً أو عملياً ، بصلاحيتها الكاملة ، فضلاً عن مدى القبول الشعبي بها .. دعونا نعطي الشعوب هنا حقها الكامل في القبول والرفض ، ونعتبر رفضها وقبولها حكماً ، قد يكون عفوياً في مظاهره ولكنه في واقعه ، ومن ضمن شروط الوعي الجماهيري ، يمتلك وعيه وصدقه الذي يبقى في المحصلة النهائية أقوى دلالة من أي وعي آخر .

إن القومي من مشروعاتنا الايديولوجية ، محكوم نشأة ، بعوامل خارجية ومضموناً بالاشكالية الاسلامية ، حاول أن يتصالح مع الاسلام مرة بتحويله إلى نقش تزييني على جلد الأمة العربية ، ومرة بجعله في قاع الذات العربية في مخزن الذكريات ، وفي المتلاشي ، من العادات والتقاليد والاعراف ، والامي ، ما يزال جاهداً ولا ينتهي إلا إلى المزيد من الاغتراب .

وليست الثورة الإيرانية وحدها هي التي أحدثت هذه الإستفاقة ، على الاسلام ايديولوجياً في الوطن العربي ، والتي يبدو أنها حدثت ممزوجة بالدهشة التي تظل مرشحة للإنحلال ، ما لم تكبر الأسئلة ليبدأ البحث عن الأجوبة الكبيرة ، غير المبتسرة ، غير المتعجلة ، غير المجتزأة .

والواضح أن الثورة الايرانية ليست وحدها التي أحدثت الاستفاقة على المستوى العربي ، هناك حالة من الاستعصاء على سيرورة تنتهي إلى نفي الذات العربية . إلى كينونة عربية تحدث انقطاعاً عن الذات التي يفترض أن تنتهي إلى أطروحات محددة سلفاً . ليست متوفرة ومن العسير أن تتوفر في الواقع العربي في بعديه التاريخي والراهن .

ومن هنا نرانا مجبرين على تحسس حسن النية لدى من يعبرون عن رغبات مشروعة بكوكتيل اسلامي ماركسي ينتهي في آخر الشوط إلى خفي حنين .

وليس التوفيق في أي حال هو البديل المنطقي للتحريف ، إسلامياً كان التحريف أو ماركسياً .

وإذا كان الاستقلال الايديولوجي شرط الاستقلال الثقافي بل يستتبعه ضرورة .. فان اشكالية الثقافة المتماثلة بين ايران والوطن العربي تسمح للثورة الايرانية أيضاً ، وبنبرة عربية إلى حد كبير ، أن تجاهر برفضها لنموذجين من الثقافة ، أريد لنا جميعاً أن نكون في خيار بينهما ، أو يكون الخروج من العصر ، ومن المستقبل هو الخيار الثالث ، وإذا كان أحد النموذجين لا يختفي تحت عناوينه فان النموذج الآخر يبدل في هذه العناوين ، ليؤمن وصولا الينا ، فنبدأ معه وننتهي إلى النموذج الأول المفترض انه نقيضه أو بديله .

إن الطبقات والقوى التابعة التي نمت في أحضان الاستعمار ، وتولدت لديها طبقاً لموقعها الرغبة الملحة في التطابق مع المستعمر

ثقافياً ، استحضرت النموذج الغربي ، غير أنها ، وبمقتضى تكوينها ونزعتها إلى التعالي حصرت التعاطي مع الثقافة الغربية بها . وعندما حاولت قوى التغيير أن تقدم بديلها الثقافي لم تستطع أن تخرج عن ذلك النموذج إلا بالاسم وطبقاً لالتزامها أيضاً ، كان لا بد لها أن تسعى إلى تعميمه كما تقتضي مسؤولية التغيير .. فعملت على إدخاله قسراً إلى البنية الثقافية الشعبية العامة التي ظلت بنسبة عالية مستعصية على ذلك النموذج رغم التحسينات التقدمية التي أدخلت عليه . ذلك لأن الاحساس بالغربة ظل في عمق التكوين الشعبي .

إلى ماذا انتهينا ؟

انتهى الشعب الإيراني إلى اليقين بأن الثقافة الإسلامية هي الضمانة الوحيدة للإحتفاظ بالشخصية وهي الناتج الطبيعي للاستقلال الايديولوجي والمدخل الوحيد أو نقطة التوسط بين الاستقلال الايديولوجي والاستقلال السياسي .

إننا إذ نبدأ من الأصل بهذا المستوى من الجرأة ليس في نيتنا القمع.. ولكن في ذهننا سؤالاً كبيراً .. لماذا حركة التحرر العربي ، لم تستطع حتى الآن ، بمجملها ، ولندع الاستثناءات جانباً ، أن تشكل المعادل السياسي للجماهير العربية ؟

بل أعطت للقوى المضادة ،ومثالها الحاضر الآن السادات ،فرصة للطموح أن يشكل هذا المعادل .. طموح في النهاية محكوم بالفشل..

ولكن فشله لا يكفي لنا زاداً ووقوداً لمعركتنا ، لأن الفراغ يبقى احتمالا ثالثاً وارداً ، وهو ما عانيناه .. خاصة بعد ذهاب عبد الناصر .. الذي كان احتمالا قوياً .

ثم السؤال الذي يتفرع أو يضارع ذلك السؤال الكبير ،من أين نبدأ ؟ من الايديولوجية .. حتى لا تبقى المسيرة الثقافية والسياسية فريسة سهلة للنقد والنقد الذاتي الذي لم ينته حتى الآن إلى التصحيح بقدر ما كان تبريراً !

الإسلام والتنظيم العربي

بصرف النظر عن العوامل الموضوعية الثابتة في نسيج المجتمع العربي ، والمميزة له تكويناً وحركة ، والتي تشكل مانعاً يحول دون انتاج التنظيم العربي ، بنفس المقاييس والمواصفات التي حددتها نظرية التنظيم « النازية والفاشية والماركسية » فان التنظيم العربي عامة ،من أي مصدر نظري تحدر ، ما يزال يفتقر إلى كثير من شروط التماسك في بنيته التنظيمية ، مما يجعل التماسك النظري —على تقدير توفره — عرضة للخلل .

لعل باستطاعتنا أن نضيف إلى العوامل الموضوعية التي تحول دون إنجاز البنية التنظيمية المتماسكة للتنظيم العربي ، عاملاً مرحلياً، هو كوننا في هذه المنطقة من العالم نخوض — مجتمعين — معركة « تحرر وطني » تحتم على التنظيم أن يظل محكوماً بضرورة بقائه مفتوحاً على الجماهير من جهة وعلى التنظيمات الأخرى من جهة ثانية ، إذا كان الانفتاح على الجماهير ضرورة حياتية ، بصرف

النظر عن مدى جدواه ، فان هذا الانفتاح الاجباري على التنظيمات الأخرى ، والذي يأتي العمل الجبهوي بعض الأحيان تعبيراً عنه ، بصرف النظر عن مدى جديته ، أو عمق العلاقات التي تنشأ داخله ، يفسح المجال – أي الانفتاح – لعدد من الالتباسات والخلط النظري الذي أزمن وأصبح معتاداً ، إلى حدبات معه يشكل ظاهرة مرضية ، تظهر أعراضها على نمط العلاقات القائمة بين سائر الأطراف والحوار الدائر بينها .

ربما كان السبب في ذلك هو أن التنظيم العربي ، مهما نما تنظيمياً ، فانه لم يستطع أن يخرج عن كونه من حيث « الحجم » استثناء على القاعدة ، يظهر عريضاً في بعض الحالات ، أو في فترات محدده ، فترات المد ، أو يكون من الأساس ويبقى في حدود النخبة ، أو يعود بعد المد إلى الانحسار لينحصر في النخبة من جديد .

يكاد هذا التلخيص أن يكون وصفاً لحالة ثابتة في التنظيم العربي ، ربما حدث أن تبدلت مرة ، كما في المشرق العربي في أوائل الخمسينات ، بعد احتلال فلسطين ، حيث ظهرت للمرة الأولى درجة من التطابق الموقت بين بعض الأطر التنظيمية وبين الوضع الجماهيري من حولها . وتكررت المسألة مع عبد الناصر الذي لم يكن تنظيماً ، ومع الثورة الفلسطينية التي كان من مميزاتها أنها لم تشبه التنظيم العربي نشأة واطار عمل فكان ذلك أحد العوامل التي أثرت إيجابياً في استقطابها ، ثم لما قاربت الثورة الفلسطينية أن

تصبح تنظيماً أو قريباً منه لأسباب خارجية أكثر وداخلية أقل، بدأت تمتثل للقانون العام لتعاني ما عاناه غيرها ، وقد لا تصل إلى ما وصل اليه تماماً بسبب أن فلسطين هي قاعدة الاستقطاب الثابتة. ولعله بامكاننا أن نبدأ من هذه النقطة تفسير التلويح الدائم «بالدولة الفلسطينية » العتيدة كمشروع لإعادة المقاومة الفلطسطينية إلى دائرة الامتثال للقانون العام وإلى موقعها في صف الاستثناء العربي .

إن حكمنا بأن التنظيمات العربية هي مجموعة استثناءات على مجموع الأمة ، لا يعني أننا نريد المس بدعواها أنها تحمل هموم القاعدة وتطلعاتها ، وأن ذلك كاف – في قناعتها – ليكون تطابقاً . ولكن بقاءها استثناء يعني أن التطابق في الهموم المجردة قد أوقعها في الالتباس ، فلم تستطع أن تتلمس خطورة الفصل بين الهم والهدف وبين المدخل الايديولوجي إليها ، مما يجعل التطابق المنظور أقرب إلى الصدفة التاريخية منه إلى الضرورة أو الحتمية . ويرشحه باستمرار للانفصال ولا يضمن استمراريته .

إن هذا الانفصال نراه حادثاً على الدوام ، وإن بدرجات متفاوتة بين بلد عربي وآخر من حيث السعة والوضوح ، ولكنه يصبح ساطعاً عندما تلوح في الأفق علامات بديل محتمل،وحتى في حالات الاحباط وانسحاب البديل « المشروع » من التداول كانت جماهيرنا العربية ، قاعدتنا ترى في ذلك تأكيداً لتوجهها ، مما يعني أن انهماكها في إيجاد البديل متأت عن بعد عقيدي ثابت في بنيتها،فلا تغير من اتجاه ارادتها في الانفصال إذا ما حدث أن

آحبطت في مرحلة من المراحل .

إن هاجس الانفصال عن مشروعات التنظيمات العربية ، والانخراط في البديل ، له تعبيراته اليومية في الحياة العربية ، التي تكاد تبدو من خلال هذه التعبيرات وكأنها حالة تحضير دائم لتلقي البديل واستيعابه . وحتى نكون على بينة من أمرنا فاننا مدعوون إلى قراءة ميدانية لثقافة الجماهير العربية . خارج الاطر الضيقة لما يمكن تسميته حالات شاذة من الوقوع في الثقافة الأجنبية ، كانت وما تزال تعاني من غربتها وعزلتها ومن حالة الاستعصاء الذي تواجهها به القاعدة ، وان كان يحدث أحياناً كثيرة أن هذه القاعدة توهم الثقافة الأجنبية بأنها بلغت حداً من الاختراق للنسياج الثقافي الشعبي، وقدراً من التغلغل في الذهنية الجماهيرية، ثم لا يلبث أن يأتي شهر رمضان أو عاشوزاء حتى تأخذ القاعدة أماكنها وتصطف خلف القرآن والسيرة وكربلاء ، تستعيد تمايزها لغة وسلوكاً وموقفاً وتؤكد ارادتها في الانفصال ولا يبقى أمام التنظيم العلماني إلا أن يتدارك وضعه في الحالة العامة للقاعدة ... عندئذ يسيل الكلام تأكيداً على انعدام التناقض في الجوهر بين فكر التنظيم وبين الإسلام .. هذا في حالة الارتخاء ، أما في حالة المرونة المفترض أن تكون محكومة بقدر أكبر من الوعي السياسي فان قصارى عضو التنظيم المندهش بحالة القاعدة أن يؤكد تميزه بالتمييز بين مستوى رجعي في فهم الاسلام والتعامل معه وبين مستوى آخر تقدمي . ولأن الجوهر واحد . أو لأن في الاسلام جانباً تقدمياً ! تضييق مساحة

التمظهر التنظيمي عند البعض الذي ينشد رضى القاعدة بالاندماج في سلوكها ولغتها وطقسها في المسجد أو الحسينية . والبعض الآخر، المنضبط ، تسميه القاعدة مكابراً ، وتلتمس في مزاجه الشخصي ، في العوامل الذاتية على أي حال ، تفسيراً لمكابرته .. هذا يخلو إلى أدبيات الحزب ليلا ، ويتناول طعامه نهاراً في مكان عام بحيث تراه القاعدة في رمضان وتلعنه جهاراً فيطرب لشتائمها التي تشعره بدرجة عالية من الاشباع التنظيمي .

ولا يأتي الموسم الثاني .. شهر رمضان أو عاشوراء .. إلا ويكون عضو التنظيم ، المرن أو المرتخي ، قد غادر موقعه ..أو زايله قليلاً ، وترى القاعدة حريصة وهي تمارس طقسها اليومي في المسجد أن تقدم لك واحداً من الشباب التائب وهو مزهو بتوبته والحالة التي أمسى فيها شاكراً لله،وهي ، القاعدة تقول لك إنه اهتدى . ألا ترى بأننا نحن الأصل هنا ؟ ويوافق « المهتدي » على تقييم القاعدة له ، وينشغل خارج الطقس الجماعي بطقس فردي « القضاء » أي قضاء ما فاته من عبادات أيام الضلالة . إن القاعدة الاسلامية لا تسجل في المواسم والمناسبات نوعاً من التحول في سلوكها على مدى العام ، انها ، في المناسبة ، طالت أم قصرت ، تراجع حصيلتها وتعيد صياغة قناعاتها وقيمها ، وعندما تتواصل مع « التراث » ؟ تسترشد بالثوابت من فكر وقيم ، تستحضرها وتحضر نفسها من خلال هذا الاستحضار .

ودائماً ترى المكابرات تتكسر ، ببطء ولكنه جذري ،وتوكد

القاعدة أنه أكيد وحتمي ، ولذا فهي ، في حالات اليقظة داخلها « حركة الامام الصدر » أو من حولها « ايران » تراها تزداد ثقة بنفسها ، عقيدة وثقافة ومنهجاً ، فتزداد مرونة وتمضي تفتح حواراتها دون حساب ، تحكمها في ذلك قناعة راسخة بأنها لا تتطلب اعترافاً ... قد تكون فيما مضى ، في فترات تعثر مرت، عانت من احساس بالانكفاء والتراجع ، ولكنها الآن — ولنأخذ لبنان مثلا ذا دلالة بعد الحرب الطويلة — أصبحت على قناعة تامة بأن الاعتراف مطلوب لغيرها وليس لها : إن الاستثناءات لايحرجها السعي للحصول على اعتراف القاعدة ، ولكن هذا الاعتراف ، من قبل القاعدة ، في عمقه مشروط بأن يلغي الاستثناء ذاته ويندمج بها . والقاعدة العربية ، تعتصم بالاسلام عقيدة وثقافة ومشروعاً سياسياً ، جاعلة التنظيم العربي في موقع خارج عنها ومنفصل ، وقصارى ما يمكن أن يحرزه من قبولها رهن بمدى التزامه بمنظومة قيمها السلوكية والثقافية ، وعندئذ يكون تعاطيها متفاوتاً بين التنظيم وبين العضو في التنظيم ، فاذا ما امتثل عضو التنظيم لها في تطلباتها السلوكية والثقافية سارعت إلى اعتباره ضمن رصيدها .. امكاناً في الأقل ..

حضور القاعدة ولغتها — الجامع —

إن بإمكان أي صحافي عربي ، أن يذهب إلى الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفياتي ، ويعود لنا بالتأكيدات اللفظية والفوتوغرافية ، بأن حضور الشباب ضئيل وهامشي في الطقس

الاسلامي ،ويبقى بامكان من يفلتون من أيدي المرافقين أو الأحكام المسبقة أن يروا غير ذلك ويؤكدوا من جهتهم بالوثائق . كما أنه لم يعد سراً أن الكنيسة الأوروبية تضيق مساحتها ومساحة الاهتمام بها يوماً بعد يوم ،.ولا يجد الذاهب إلى أوروبا صعوبة في اكتشاف أن الكنيسة تنفرد بهامش قصي جداً من اللغة اليومية والاهتمام العام.

ولكن ليس بامكان أي منا أن ينكر أن المسجد في الوطن العربي يتسع فيه حضور الشباب وينحسر حضور المسنين ، إن لم يكن حجماً فأثراً وفي خط بياني صاعد .. ينهض المسجد العربي (الجامع) متحداً اجتماعياً ، لا ترى الجماهير ، حالة وعدداً خارجه ، أو قد تجدها خارجه مرة (المهرجان السياسي في لبنان في السنوات الأولى من الحرب) ، ولكنك لا تلبث أن ترى العقد وقد انفرط ليعيد تجميع نفسه باتجاه المسجد ... الجامع .

لقد مرت فترة من حياتنا ، أدركها جيلنا ، كان المسجد خلالها يخوض سجالا مع المؤسسات التربوية ، سببه التأكيد السياسي العلماني العربي على أن المدخل الصحيح إلى تعميم العقيدة العلمانية، بما هي خروج على الدين عامة والاسلام خاصة، هو نشر التعليم، وقد تسبب ذلك باستجابة رديئة من قبل المتدينين قاعدة وقيادة، وعندما انتشر التعليم ولم يبق « المعلم » الحزبي أو العلماني بصورة عامة استثناء الحي أو القرية ، تبين أن هذا السجال مبالغ فيه وانه مقطوع الأسباب والمبررات ، فحلت محله علاقة تكافؤ وصلة تكامل بين المسجد والمدرسة وامتدت الحالة إلى الجامعة ، وأصبح

الحضور في المسجد العربي يشهد تبدلا في اللغة مفردة وتركيباً ، صارت لغة المتدينين تمارس لوناً من الهجوم السياسي على معاقل التنظيم العربي لتستعيد الشعارات الأساسية . وتطرحها مدعية أنها الأجدر والأضمن لتحقيقها ، وتعمل فيها تعديلاً بما يتناسب مع ثقافتها، ترفض الحياد الأيديولوجي في رفع الشعار والتعاطي معه ، فالوحدة وحدتها ، أساسها عقيدي والعوامل الأخرى ليست منفية. وانشغالها بالوحدة هدفاً ومسعى لا يجوز أن يتأتى من مقايسة الذات على الغير بل من قوانين الذات ومتطلباتها . والحرية تنعدم فيها إمكانية التجزئة ولا تعود تحتمل السقوط في طرف بديلا للخروج من طرف آخر .. إذ كل دخول في مفاضلة هو مقدمة للارتهان .. والحرية ذات مستويات كل منها ضمانة للآخر ، بدونه يسقط ، سياسياً واقتصادياً وثقافياً .. ثم إنها، الحرية ، في المنظور الإسلامي، تدخل ضمن قائمة المميزات الحضارية، وإن كانت تقتضي أولويات وتحالفات وصداقات .. ما .. فان هذه لا بد أن تتحرك على قاعدة ما تنجزه الأمة . أي أنه معياري ونسبي الثبات ..

حركة الإمام الصدر وشروط الاستقطاب :

في هذه القراءة الميدانية ، المبسطة بعض الشيء ، يمكننا أن نلتمس أسباب حالة الالتفاف القاعدي حول حركة « الامام الصدر» في لبنان ، والمثال اللبناني رغم أن له خصوصيته فأنها لا تجعله خارج العام العربي ، بل تعطيه صفة الشاهد ليس إلا ...

قد يكون هناك من يسارع إلى القول بأن حركة « الامام الصدر » قد فشلت .. غير أننا مضطرون إلى القول بنسبية الفشل والنجاح في حركة ما قياساً على ظروف البلد الذي تنشأ فيه من حيث تركيبه الاثني وتكوينه التاريخي مما يعين امكانات النجاح وحجمه . وحركة « الامام الصدر » لم تنجز عمليتها الانقلابية الشاملة على الساحة اللبنانية ، ولكن ذلك ليس فشلا يحسب عليها . إن لبنان الكيان أصلاً لا يتسع للمشروع الاسلامي ولا للمشروع القومي ، بل ربما كان دوره في مرحلة ما ، مرحلة الأعداد ، أن يشكل ظرفاً مؤاتياً لإنضاج المشروع بمجمل الأنشطة التي يتيحها الوضع السياسي فيه .. وفي مرحلة أخرى يمكن أن يشكل حالة قابلة لتلقي المشروع والاندماج به ، بعد أن يتحقق على المستوى القومي أو الاسلامي .

على هذا يمكننا التأكيد بأن حركة الامام الصدر قد نجحت فعلا ، لا لأنها أسست نهوضاً بل لأنها كشفت أن ارادة هذا النهوض هي ارادة مكتملة في القاعدة وخارج مجموعة الاستثناءات .. ميزة حركة الامام الصدر أنها التقطت شروط التعبير عن هذا النهوض وتعاملت معها بمنطقها ، فكشفت أن الشرط الاسلامي هو الأساس في أي نهوض عربي ، إذا كان المطلوب للنهوض أن يتم بالقاعدة لا خارجها ولا نيابة عنها .

إن تحليل ومحاكمة حركة « الامام الصدر » بنفس المنهج والمنطق المعتاد ، يؤكد حالة الالتباس عندما ينطلق من مسلمة

« برانية » الإسلام في مجتمعنا مرحليته بمعنى أنه إنجاز مرحلة من تاريخ العرب والمسلمين ، استجاب لها وغطاها ، ثم تحول إلى تراث ، .يبدأ غيابه وانسحابه من النقطة أو اللحظة التي يمسك فيها التنظيم بزمام التعامل الجدي مع القاعدة ، نظرياً وعملياً . على أن التنظيم العربي — الأممي منه خاصة — قد بلغ من طول العمر بحيث كان مرجواً ، لو كان علمياً بما فيه الكفاية ، أن ينجز قدراً كبيراً من دفع الاسلام في طريق الانسحاب والغياب ولما كانت حركة « الامام الصدر » في بلد عربي كلبنان ، لا يشكو من شح في الظروف المؤاتية للنشاط التنظيمي تأتي لتكشف أن الاسلام هو الوحيد النابض داخل الذات العربية . وأن أي محاولة لاستقطاب الأمة ، من أجل انجاز مشروع ، مهما يكن محقاً ، ومنسجماً مع متطلبات الأمة ، لن يكتب لها النجاح إذا لم يكن الاسلام مدخلها إلى هذا الاستقطاب ، وأن أي مصالحة تعقد مع الاسلام بذهنية ذرائعية لن تجدي مع القاعدة الاسلامية . على أنه من الضروري أن لا يدخل في روع التنظيم العربي أن هذه التعارضات من شأنها أن تستدرج القاعدة الاسلامية ، والقاعدة تحديداً وبدون أي التباس ، إلى السقوط في العداء للقومي أو التسامح مع الظلم الاجتماعي ، أسباباً ونتائج .. فحركة « الامام الصدر » في المثال ، قامت على أساس الانحياز الواضح للأهداف القومية والمحرومين معاً . وايران القادمة على تطبيق مشروعها في الاقتصاد « التوحيدي » ليست مجرد شاهد .

• • •

الاسلام مشترك ثوري

— الأستجابة العربية للثورة الايرانية —

إن عقيدة العلمنة التي تدخل في الأساس النظري لمشروعات التنظيم العربي اندمجت في منظومة القضايا القومية والوطنية والاجتماعية ، التي شكلت الخارطة السياسية والنضالية لبرامج هذه التنظيمات سواء في الرد على التجزئة أو المواجهة مع الاستيطان الصهيوني والهيمنة الاستعمارية .

ومن هنا كانت عملية الدفع بالعقيدةالعلمانية تعصباً وتعميقاً ونشراً ، تأخذ في اعتبارها ضرورة التخفيف من الصدام مع منظومة القيم والأفكار الجماهيرية حرصاً على ابقاء الجماهير في حالة تعبئة باتجاه الأعداء الرئيسيين ، أي تجنب الوقوع في محذور التصادم مع وضعية القاعدة تلافياً لخسرانها ،هذا المحذور لم يكن قائماً تماماً في حالات جماهيرية اسلامية غير عربية — تركيا وايران — مما أتاح لمصطفى كمال . ورضا خان وولده المعزول محمد رضا بهلوي والفئة الحاكمة أن تتقاطع أو تتطابق في مشروعاتهم السياسية « العلمنة مع التغريب والعنصرية » والتي كانت بمجموعها مشروع انفصال عن السوية الاجتماعية في بلديهما من حيث التكوين والقيم وقوانين التطور معاً . فكان الصدام مع الاسلام صريحاً وفي المقابل كـان الاستعصاء التركي والايراني والاعتصام بالاسلام في الرد على مشروعات الساطة . ومزيد من العناد ومواصلة الانفصال والصدام مع الاسلام في ايران انتج مزيداً من التشبث الشعبي

بالاسلام . حتى سقط المشروع الايراني أمام مشروع الثورة
الاسلامية التي حرصت منذ البداية أن تكون نقيضاً لهذا المشروع
فأعلنت حرصها على أهمية التوجه باعتبارها ثورة المستضعفين
وعندما أعلنت أنها لن تكتمل فصولا وفلسطين في قبضة الصهيونية
كانت تشير إلى شرط حرية ايران في حرية الشعوب الاسلامية من
حولها . وفي نفس الوقت الذي أصرت فيه على أنها لن تصدر نفسها ،
أعلنت أنها لن تمنع رياحها من أن تتسع أفقاً وعمقاً ، معتبرة أنها
من حيث الأسباب أوسع من ايران، والنتائج لا بد أن تلحق بأسبابها
قهراً .. ثم وضعت ذلك ضمن سياق هوية حددتها لنفسها « نه
شرقي نه غربي حكومة اسلامي » لا شرقية ولا غربية دولة إسلامية»
فقدمت استقلاليتها الاسلامية وقدمت الاسلام مشتركاً ثورياً .

فهل كانت الاستجابات التي حصلت حتى الآن والتي هي
متوقعة مستقبلا ، متوافقة مع هذا التقديم بمعنى أنها استجابات
قامت أو تقوم على أساس الاسلام أم لا ؟ وإلى أي حد نشّط هذا
التقديم اعادة طرح الاسلام ؟ طبعاً خارج الإشكالات التي رافقت
مجمل الأنشطة الاسلامية خلال القرن الحالي على الأقل ؟

نستطيع أن نحسب بالأرقام فعل الثورة الايرانية في غير مكان
من العالم الاسلامي والعربي . ونستطيع أن نرى مظاهر وتعبيرات
الذعر — في البداية — والتي رافقتها حالات من تلمس عدد من
الأنظمة — للخلل الذي اعترفت به من حيث علاقتها بقواعدها
الشعبية وكان بينا أن سببه هو اللااسلامية .. أو قشرية الاسلام ،

وردت باعلانات اسلامية حاولت بها أن تسترضي القواعد وتصرفها
عن الامتثال للحالة الثورية التي أطلقتها ثورة الاسلام في ايران .
ولأن المسألة أشد عمقاً وأكثر تعقيداً ، لأنها في الجوهر ، كان
واضحاً ، وما يزال ، أن الاسلام المتداول لا يتطلب اصلاحاً
بالزيادة على ما هو متحقق منه ، بل إن ما فيه من اسلام ، ليس
في الواقع. اسلاماً .

أما التنظيم العربي فانه سارع إلى الاعلان عن موافقته على
إسلام ايران ، باعتباره اسلاماً تقدمياً . ولو دققنا النظر قليلاً
لوجدنا أن الاسلام المطروح في ايران هو نفس الذي كان منعوتاً
بالرجعية إلى فترة قريبة مضت .

وهناك من هو أكثر صراحة ومذهبية ، فيرى في موقف
حزب « تودة » موقف الواثق من كونه الوريث لما يجري . ولكن
هذا كله لم يمنع أن تتبلور حالة قاعدية خارج التنظيم العربي ،
ويتضح هذه المرة أنها أعمق وأوسع .. ففي لبنان يتسارع الانتظام
القاعدي والشاب منه بخاصة في الاسلام ، على مستوى الطقس
والثقافة والأيديولوجيا والسياسة ، ويزداد الاقبال على الكتاب
الاسلامي ، ويطرأ تغير نوعي على طريقة قراءته والتعاطي مع
أطروحاته ، وتحاصرك الأسئلة أينما ذهبت عن جزئيات إسلامية
في المعرفة والتاريخ والتشريع ، كدت أن تنساها أو كنت مضطراً
لتناسيها ، لأن الحديث عنها خروج من سياق المعاصرة ومدعاة
للمصادرة على التقدمية ... ومع الأسئلة اعترافات بالتقصير وسعي

جاد لاعداد اجابات جديدة ، اسلامية ، على أسئلة مزمنة لم تشبعها الإجابات القديمة .

يعاد اكتشاف الاسلام ويعود التعامل مع رموزه بحنان مفرط . وتشيع حالة من الطلب على الوحدة القاعدية خارج المذاهب والمؤسسات التي تواجه تقييماً سلبياً لها انطلاقاً من كونها مؤسسات نظامية مندمجة بغيرها الذي هو نقيضها ، وليست على المثال الإسلامي.

وإذا سلمنا بأن القاعدة الاسلامية حول ايران الثورة قد وضعت نفسها منذ بدء الثورة على طريق الاستجابة لها ، فان في الاصرار على توصيف اسلام ايران بالتقدمية واعتبار أن هذه التقدمية هي عامل الاستجابة امعاناً في التبسيط . يمكن الرد عليه بوضع التساؤل على الشكل التالي :

إذا كانت الاستجابة الحادثة أو المتوقعة ، قد حدثت بفعل ما يفترض أنه مميز لاسلام ايران « التقدمية » فان في ذلك ادعاء بأنه بقدر ما يقترب الإسلام من نموذج تقدمي « ما » بقدر ما تحصل الاستجابة له ... فلماذا إذن لم تحصل الاستجابة إلى التقدمية من الأساس ؟

من أين يأتي هذا الالتباس :

في نفس الوقت الذي قدمت فيه الحقبة العثمانية نفسها استمراراً للتمايز الشرقي عن الغرب ، كانت مرحلة دخول النموذج الغربي فكراً وسلوكاً ، إلى حيز المشاهدة والاهتمام الشرقي أو الاسلامي

على وجه التحديد . وقد تسبب انفصال السلطة العثمانية – بنيوياً – عن الشعوب التي حكمتها واستبدادها وتقييدها لعوامل الحركة والتطور ، بحالة من الاندهاش العام بالنموذج الغربي الذي قدم نفسه كنموذج تطوري يساوق حركة التاريخ في فكره وفعله . وكان هناك باستمرار من هو جاهز لالتماس سبب القصور العثماني في الإسلام واعتبار تخلفه متأتياً عن عقيدة تخلفية هي الاسلام .

من هنا أصبحت التقدمية المطلوبة أساساً تقاس بمقياسين هما واحد في النهاية : الخروج من الاسلام والدخول في الغرب .

وعندما سقطت الدولة العثمانية ، وسقط الشرق سياسياً في الشرق، وصل الغرب بكل أدواته الفكرية لاعمار الأرض وتسريع عملية الرشد الحضاري في المنطقة ! وتبين أن المراهنة لم تكن دقيقة بل ساذجة ، وسقطت المراهنة على الغرب الرأسمالي ... المستعمر ..

وكان الغرب قبلها قد دخل أزمته التي انتجت فيما انتجت نقيضها – الماركسية – دليل العمل الغربي للخروج من أزمة « الغرب » ..ببلوغ رأسمالية الغرب مرحلة الأمبريالية انتقلت الأزمة آثاراً ونتائج إلى أرضنا وشعوبنا .. وانتقل مع الأزمة الدليل النظري للخروج منها ... انتقلت الماركسية بعموميانها وتفاصيلها لتقدم دليل عمل لنا للخروج من الحالة الأمبريالية التي عمت .

لقد انتجت عقيدتنا التقدمية في المرحلة الأولى سقوطاً في الغرب واندماجاً بأزماته وفي المرحلة الثانية ظللنا ننشد الخروج من التقييد الرأسمالي التخلفي بالاقتراب من الغرب ثانية في مثاله الماركسي...

أصبحت الماركسية دليلنا الغربي للخروج من معوقات الغرب ... هنا أدمج الاسلام (في المستوى النظري) بالرأسمالية والاستعمار . وهو الذي أدين سابقاً لأنه كان مانعاً من الدخول فيها ... والمهم ان الإسلام بقي في السياق الرجعي . وثانية أصبح معيار التقدمية هو الاقتراب من الغرب . وفي كلا المرحلتين بقي هناك هامش ضيق لتوصيف الإسلام بالتقدمية ، وكما أن امتداح الغرب في الفكر والسلوك ، أو الاقتداء به ، وادخاله في العادة والعلاقات الإجتماعية والفعل اليومي والمظهر ، دليل تقدمية الفرد أو الجماعة أو المنهج ، أصبح المصطلح الماركسي . أو مقاربة المنهج الماركسي في التحليل ، أو التفلت السلوكي من مجمل القيم المحلية ، دليل عافية وتقدمية . وكانت الخطورة هذه المرة أن الالتباس لم يبق مقتصراً على صانعيه ومحدثيه ، بل انحدر إلى مستويات أخرى فأصبح التمظهر التقدمي ضرورة تستدعي هجر المصطلح وأداة التحليل ومفردات الفكر ، لقد سلم الكثيرون منا بأن تقدمية الإسلام تأتي من خارجه وليس منه ، تضاف اليه، اقراراً بالتمايز وبأن هناك اسلاماً وهناك تقدمية.. وفي أي حال لن يكون الإسلام تقدمياً ، يكون الواقع في الإلتباس هو التقدمي ، وفي المحصلة يكون خارجاً جزئياً أو كلياً من الإسلام لأنه تقدمي ، وتقدميته هي قضيته الخاصة ، انجازه .

من هنا انشغل كثيرون منا بتبرير انتمائهم للاسلام ، ولم يجدوا إلا في الهم التقدمي تبريراً ... وهكذا قاربنا الطقس الإسلامي بفهم تقدمي ؛ ، ألصقناه به حتى نبرر ممارستنا للطقس ... وانشرح

صدر الملبّس ، ناشر الالتباس وداعيته ، أصبح الالتباس قاعدة ... لولا أن أتت ايران لتكشف أن هذا الالتباس هو إلتباس نظري... ذهبنا إليها ورأينا الفعل الاسلامي طقساً ... وفعلا ثورياً في مستوى الثقافة والسياسة .. موصولا .. واحداً ، تقدمياً حتى النخاع ، وتقدميته طالعة منه .

إن الأصل في الالتباسات — النظرية والسياسية العربية — مع الإسلام — يكاد يكون مصدره واحداً ، هو الاعتقاد الراسخ ببرانية الإسلام ومرحليته في تاريخ الأمة .

لقد تسرب هذا الالتباس الينا من المداخل النظرية التي قرأنا الاسلام من خلالها . أي من وقوعنا في ثقافة الآخرين .

وعندما انتقلنا من القراءة النظرية على ضوء المنهج الغربي الى القراءة الميدانية للاسلام في سلوك وثقافة القاعدة ، واجهنا عمق الاسلام فاعتبرناه حالة حضارية صعبة ولكنها مرشحة للزوال . وما علينا إلا أن نسرع عملية التحضير انتاجاً ووعياً حتى تنحل هذه الحالة . من هنا كانت البداية في وضع التنظيم العربي نفسه خارج القاعدة ، التي لم يحدث يوماً أن وضعت نفسها خارج المضمون القومي والاجتماعي لشعارات التنظيم . ولكن هاجس الانفصال الذي ظل مسيطراً ، كامناً أو ظاهراً ، كان وما يزال يأتي من تحفظ القاعدة وشكها في أهلية التنظيم العربي لإنجاز الأهداف والمهام .

تقدم النظرية التقليدية التنظيم على أنه الوسط بين النظرية والممارسة . يتضمن ذلك حكماً بالانفصال بين النظرية والممارسة ، والحاجة إلى الواصل « بينهما حتى تمر العلاقة الجدلية عبره ... تصحيحاً للنظرية بالممارسة وترشيداً للممارسة بالنظرية .

إن ذلك يعني أن التنظيم حتى يقـوم بهذا الدور ، لا بد أن يكون من الأساس هو الحامل الفعلي للنظرية الساعي إلى تعميمها ... والسعي إلى تعميمها يعني أنها في مرحلة ما .. ليست مجرد بنية فوقية وحسب ، بل هي تخص الأقلية — النخبة — (١) .

لو أخذنا أي مجتمع غربي واختبرنا مصداقية هذا الكلام لما وجدنا ذلك متعذراً لأن المسيحية التي كانت وما تزال عقيدة الغرب العامة ، ليست هي النظرية (لا الدولة ولا الثورة) ... هي العقيدة العامة ، ولكنها لا تغطي إلا حيزاً محدوداً من حياة الفرد أو الجماعة ، هذا الحيز يتصل دنوياً بالعموميات الأخلاقية التي يراد لها أن تطبع السلوك العام ولا تحكمه ، وبالتالي فان التعليم المسيحي في الغرب يتجه أخروياً ويظل في كل حال واسعاً وتسامحياً إلى أقصى الحدود مما يتيح للجميع الافادة منه في التبرير . لا فرق بين فرد وآخر أو فئة وأخرى أو طبقة وطبقة . وحكماً لا بد أن تأتي النظرية « الثورة أو الدولة » من الخارج ، من خارج العقيدة متفقة معها ، مهادنة لها ، مستغلة أو مقوضة ... وعلى هذا فلا بد أن تبدأ استثناء .. على

مساحة النخبة . باتجاه التعميم .. وهذا التعميم تنهض به النخبة التي تصبح تنظيماً ... وسطاً .

وإذا نقلنا الكلام إلى المجتمعات العربية والإسلامية يصبح متعذراً علينا أن نجد له تلك المصداقية . لأن الإسلام الذي هو العقيدة العامة ، عقيدة القاعدة ساحة الثورة ، هو نظرية الثورة والدولة معاً . والدولة لتكون مقبولة وشرعية ، يجب أن تسترشد بالنظرية التي هي عامة وليست نخبوية ،وليست الدولة فيها وسيطاً ، إنها إطار تنفيذي .. وعندما تنحرف السلطة — الدولة — تنفصل عن القاعدة ، تصبح نخبة ، لاتعود النظرية العامة مرشدها ، تأتي الثورة ... التي هي مشروع القاعدة دائماً ، تنخرط فيها بمجموعها مسلحة بوعيها النظري ... لا تبقى بحاجة إلى التنظيم ، الذي يكون دوره التقليدي أن يحقق العملية الانقلابية ، حتى السلطة ، «بواسطة الجماهير ومن أجلها »... لأن الجماهير هنا لا تحتاج إلى واسطة ... إلى طرف ثالث .

إضافة إلى هذا كله فان المجتمع الغربي ، في اطواره كافة ، ربما كانت ميزته أنه مجتمع تخصصي .. يقوم على أساس التمايز الوظيفي الكامل ، بين الفئات والأفراد والطبقات .. الخ . بينما المجتمعات الاسلامية لم تكن كذلك .. واقترابها النسبي من المجتمعات الغربية ، بمقتضى الاستعمار والتواصل ومشروعات السلطات المحلية التابعة ، لم يغير نوعياً في واقعها هذا ، فظل الاختصاص أو التخصص المحدود قائماً على أساس عمومية الشأن

الاجتماعي والسياسي والثقافي (٢) نجد تجسيد ذلك في مظاهر وعلاقات الحياة اليومية والأدبيات الشعبية ... من هنا كان الإسلام منذ فجر الدعوة مشروع الجميع ، انخرط فيه الجميع (٣) ومن هنا يأتي ذلك الوضوح في تعميم المسؤولية الإسلامية : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (٤) .

« وقفوهم أنهم مسؤولون » (٥) : « من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته» .

إن هذا يفسر أهم عوامل نجاح الثورة الإسلامية في إيران . كونها لم تكتف بالتماثل العقيدي مع القاعدة . بل أصرت على أن تكون مشروع هذه القاعدة لا مشروع الاستثناء فلم يقدها التنظيم ، بالمفهوم التقليدي للتنظيم وقيادته ، بل تراجعت التنظيمات على اختلافها إلى القعر في الفعل والتأثير . ويفسر بالتالي فشل التنظيم الإسلامي في الوطن العربي تحديداً ، الذي لم يكفه التماثل العقيدي مع القاعدة مؤونة للنجاح ، لأنه اختار موقع الإستثناء...جعل نفسه طرفاً ثالثاً . مع طرف واحد ، استبدل الأقلية — النخبة — بالقاعدة وأشعرها بدرجة من الانفصال عنها .

هل هذه دعوة للفوضى الثورية ؟ لا .. إنها تأكيد على قدرة القاعدة على تنظيم حركتها باتجاه الثورة والتغيير ، بمنطقها . ويبقى هذا القدر من التنظيم للفعالية القاعدية في عملية الثورة محالا لتمايز وظيفي محدود ومطلوب أيضاً ... وهو ماكان متوفراً في إيران وما يزال متوفراً فيها ومطلوباً للثورة عندنا إذا ما أرادت فعلا أن

تصبح ناجزة .

إيران والخصوصية :

يقع بعض الماركسيين العرب في الأيديولوجيا التي كانت الماركسية نفياً لها . ومن هنا تتسم بعض مساهماتهم في تحليل وتفسير بعض الأحداث التاريخية الكبيرة بالكثير من الإكراه للحدث نفسه ، لإدخاله في سياقاتهم النظرية دون اعتبار لخصوصياته ، بل بالإلغاء الكامل لهذه الخصوصيات واعتبار الوقوف عندها والتمسك بها كمميزات للحدث اعتباطاً وعناداً وخروجاً على أصول المنهجيه العلمية .

وفي محاولتهم لحشر الحدث في العام الجاهز في ذاكرتهم تعتريهم حالة من الغيبية في التشديد على الفرضيات والمسلمات (عدة التحليل) بصرف النظر عما إذا كانت تتنافى أو تتعارض مع طبيعة الوقائع التي تشكل الحدث عبرها . تتحول المادية التاريخية إلى عقيدة باطنية تعطي فرصة كبيرة للتأويل إلى حد التعسف .

باستطاعتنا أن نمسك هنا بالسبب الذي يدعو البعض إلى الإلتباس في الحديث عن خصوصية الثورة الإيرانية ، ونرى ذلك الإصرار على الإستبطان في تجديد مسار الثورة الإيرانية طبقاً لنوعية القوى التي يفترض تعسفاً أنما هي الفاعل الرئيسي في الثورة ماضياً وحاضراً ومستقبلا ... لا لشيء إلا لأن « الظاهر » الثوري الإيراني الإسلامي ، فكراً وقيادة مشطوب في عموميات الفكر الماركسي

وهو إذا ما بدا في مرحلة من المراحل ممسكاً بالعملية الثورية فان ذلك ليس أكثر من خداع للنظر الثوري ، ولن يلبث أن يخلي موقعه قهراً وحتماً لغيره،هذا الغير هو « التنظيم » المسلح بنظرية الطبقة العاملة والذي يفعل فعله تحت السطح الراهن ، منتظراً سقوط الإسلام عملا وأطروحة ، مغمضاً النظر عما تبقى من إمكانات وفرص ثورية ، غير أصيلة وغير ثابتة وجزئية جداً ، في الفكر المثالي الديني .

مع هذا الطرح نرانا مضطرين إلى التأكيد على خصوصية الثورة الإيرانية،التي لا بد أن يفضي الإستمساك بها لا إلى القطع مع الغرب فحسب ، بل إلى عصبية حضارية هي مشروع المنطقة للخروج على تاريخ ومحاور الاستقطاب الدولي وتأسيس استقطابها الخاص . ليست خصوصية الثورة في إيران وحسب إنها خصوصية الثورة في المنطقة .

* * *

(١) كتب لينين « أزمة الحزب » ١٩٢١ : « إن الحزب الشيوعي طليعة البروليتارية يقود جماهير العمال ويثقفها ويعلمها ويعدها ويدربها » .
أيضاً لينين ١٩٢٢ : « إن فكرة بناء المجتمع الشيوعي الروسي بصورة شاملة على يد الشيوعيين هي فكرة طفولية ، وطفولية تماماً .. إن الشيوعيين قطرات في محيط الشعب » .
أيضاً لينين : « ما العمل » يؤكد أن « حمل الوعي الثوري إلى الجماهير يتم من الخارج » .
ويلخص ماو الأزمة كلها بهذه التوصية « يجب على الحزب أن يعود إلى صفوف الشعب ويشاركه ثورته ويتفهمه ويبزغ منه ويعود إليه بحصيلة التجربة قائداً عملياً ونظرياً . » .منير شفيق – الماركسية اللينينية ونظرية الحزب الثوري – دار الطليعة – ط ٢ ١٩٧٨ .

(٢ – ٣) تقدم فيما يلي عينة من النصوص التي تضع هذه المسائل في إطارها التشريعي :
أ – في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١ – « هما من أسمى الفرائض وأشرفها ، وبهما تقام الفرائض ، ووجوبهما من ضروريات الدين ، ومنكره مع الإلتفاف ... من الكافرين ».. « إن الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له ... فقيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له ؟ قال : الذي لا ينهى عن المنكر ». الإمام الخميني – تحرير الوسيلة – ج ١ ص ٤٦٢ .

٢ – « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما واجبان على الأعيان في أشبه القولين » المختصر النافع في فقه الإمامية – جعفر بن الحسن الحلي المتوفى ٦٧٦ ه المكتبة الأهلية – بغداد ١٩٦٤ م – ص ١٤٣ .

٣ – « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضان من فرائض الإسلام .. وهما فرضان على الأعيان لا يسع أحداً تركهما والإخلال بهما » . النهاية في فجر الفقه والفتاوى – أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي ٣٨٥ – ٤٦٠ ه – دار الكتاب العربي بيروت ط ١ – ١٩٧٠ – ص ٢٩٩ .

ب – التعليم :

« يحرم أخذ الأجرة على ما يجب عليه فعله عيناً ، بل ولو كفائياً على الأحوط. ومما يجب على الإنسان تعليم مسائل الحلال والحرام » الخميني – تحرير الوسيلة – ج ١ ص ٤٩٩ .

« ويكره أخذ الأجرة على تعليم شيء من القرآن ... وكذلك على نسخ المصاحف » المصدر السابق ص ٣٦٧ .

ج – الجهاد :

« لو غشي بلاد المسلمين أو ثغورها عدو يخشى منه على بيضة الإسلام ومجتمعها يجب عليهم الدفاع عنها بأي وسيلة ممكنة من بذل الأموال والنفوس ولا يشترط ذلك بحضور الإمام عليه السلام وإذنه ولا إذن نائبه الخاص أو العام ، فيجب الدفاع على كل مكلف بأية وسيلة وبلا قيد أو شرط » .

« لو خيف على إحدى الدول الإسلامية من هجمة الأجانب يجب على جميع الدول الإسلامية الدفاع عنها بأي وسيلة ممكنة كما يجب على سائر المسلمين » الخميني / تحرير الوسيلة / ج ١ ص ٤٨٥ – ٤٨٦ .

د – وقائع مؤيدة من التاريخ الإسلامي :

١ – قبيل معركة بدر تكلم سعد بن معاذ مبدياً وجهة نظر الأنصار في خوض المعركة ، كلاماً طويلا .. ختمه بالقول : « فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك » – السيرة النبوية – ابن هشام – ج٢ ص٢٧٢.

٢ – أراد الرسول « ص » أن يستشير المسلمين في أمر الخروج إلى المشركين في أحد فقال أحدهم وقد فاتته بدر ثم استشهد في أحد « يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا».. المصدر السابق ج ٣ – ص ٦٧ .

٣ – وبعد معركة أحد قرر الرسول « ص » الخروج في طلب العدو ، وكان رجل من بني عبد الأشهل قد جرح في أحد .. يقول : « فلما

أذن مؤذن الرسول « ص » بالخروج في طلب العدو قلت لأخي ، وما منا إلا جريح ، أتفوتنا غزوة مع رسول الله « ص » ؟ والله مالنا من دابة نركبها ... فخرجنا وكنت أيسر جرحاً فكان إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون » . المصدر السابق – ج ٣ ص ١٠٧ .

٤ – في فتح مكة « وأوعب مع رسول الله « ص » المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد » . المصدر السابق ج ٤ ص ٤٢ .

٥ – ... « وقدم رسول الله « ص » المدينة وقد كان تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ».. فقال رسول الله لأصحابه : « لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة » . وعندما حلف واعتذر المتخلفون من المنافقين صفح عنهم ... أما الثلاثة فقد « أمرهم باعتزال نسائهم فصرفوهن إلى بيوت أهلهن ، وجاءت امرأة هلال فقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له أفتكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك ... إلى أن نزلت الآية : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ... وعلى الثلاثة الذين خلفوا » ١١٧–١١٨–التوبة . المصدر السابق ج ٤ ص ١٧٥ الى ١٧٩ .

مُقدِّمات حول إشكاليّة الإسلام في مشروعات حركة التحرّر العربي

١ ـ المشروع الأممي :

يراوح أصحاب المشروع الأممي في الوطن العربي ، بين موقفين من الإسلام : جوهر الموقفين واحد ... أحدهما يلتصق بعموميات الفكر الماركسي إلى حد توصيفه بالنصوصية . ومن موقع ماركسي يندرج الإسلام في منظومة الفكر المثالي الغيبي الرجعي ، المنتج ضمن مرحلة ما ، في سياق تطور قوى وعلاقات الانتاج ، وكبناء فوقي يغطي ، أيديولوجيا ، الطبقة المهيمنة ويمثل فكرها السائد ، التبريري والتقييدي في آن معاً ، ويدخل بالتالي في التوقعات العلمية التي تقتضيها الحتمية التاريخية ويرسمها مسار التطور .. ومن هذا الواقع بالذات يأتي التبشير بسقوط الاسلام ونهوض الطبقة العاملة وفكرها المادي الجدلي .

والثاني تنفتح مبدئيته قليلا لذرائعية ترى في الاسلام خصوصية

فيقول : « هولاء « الملا » سوف ندرس حالاتهم ، وأنا لاأعرف عددهم بالضبط »(٦). ولكن الصدام ابتدأ فعلا عندما لم يعد بامكان الثورة اخفاء هويتها الفكرية ، فقامت بتوضيحها عملياً .. وبدأ من جديد اضطهاد رجال الدين والتضييق عليهم بعد أن وعد « طرقي » « أن يخصص لهم مرتبات باعتبارهم عمالا دينيين »!!(٧)

وبالضبط بدأ الصدام عندما فهمت الجماهير الأفغانية من اطلاق شعار محو الأمية والتركيز على القطاع النسائي أكثر من غيره ، في الريف والمدينة معاً ، أن ذلك مدخل إلى ادخال أوليات الفكر الماركسي إلى ذهن وحياة الاسرة الأفغانية ، والتركيز على المرأة إنما هو بهذا السبب ، باعتبارها المدخل الرئيسي إلى الاسرة ... وتساءل الأفغانيون : في مجتمع تبلغ فيه نسبة الأمية ٩٠ ٪ ماذا يجدي تعليم القراءة والكتابة للنساء الريفيات ؟ بينما حل المعضل يحتم البدء من الرجل ، الذي يسهل تعليمه فيما بعد اجتياز العوائق في مجتمع له تقاليده المحكمة .

ألا يعني ذلك ، أيضاً ، الاتيان إلى المجتمع من خارجه ، والتعامل معه بالقسر ؟. خاصة عندما يتم ذلك في مجتمع يتنكر لأرواح أجداده الذين قاتلوا جيش الفتح الإسلامي ، ويعتز بشهداء هذا الجيش الذين سقطوا على أرضه ويعتبر أن الدنيا بخير مادام الاسلام بخير .. وهو يؤكد لفهمي هويدي أن مصير الثورة في أفغانستان إنما يتقرر في المساجد .

في النهاية : أليس في اعتراف « طرقي » بأن عدد أفراد الحزب

وميزة على الأديان الأخرى وعلاقتها بتكوين وتاريخ مجتمعاتها. ومن موقع ماركسي يبدأ التحرر النسبي من التعميم الماركسي ، الذي يبقى أساساً ، فيعود التحليل اليه ، ولكن بمنطق يدعي درجة من العلمية تخرجـه من أسر النصوص ليتعامل مع الواقع بقدر من الموضوعية شكلا، من هنا تنصب كثير من الجهود العربية ، لا على التحريض باتجاه نفي الاسلام ، بل على التعامل الانتقائي التركيبي معه . وذلك باجتزاء ما يتوافق من نصوص وأحداث إسلامية مع عموميات الفكر الماركسي ، تحديداً فيما يخص العملية التاريخية في سيرها نحو تحقيق العدالة الاجتماعية ، ليتم التأكيد من خلال ذلك على التوافق بين الاسلام والماركسية في بعض الطروحات الإسلامية .

مع التذكير الدائم بمرحلية هذا أو ذاك الجانب « المتقدم » وجزئيته في الفكر والتاريخ الاسلاميين ، والخلاص في النهاية إلى مقولة « النسخ » الماركسي للاسلام ككل .. يصبح المثالي هناك مرحلياً هنا ، والمنفي هناك مستنفداً هنا .. دون أن يتغير الجوهر .

المستوى السياسي للنقاش :

ربما يكون النقاش النظري بين المفكرين الاسلاميين ومنظري اليسار العربي ، أو داخل حلقات اليسار العربي نفسه ، إبان الانشقاقات التنظيمية والسياسية ، حول هذه المسائل قد بلغ درجة متقدمة ، وإن لم يكن قد بلغ درجة الحسم أو القطع ، وما هو

ببالغها ، طالما ظل منحصراً في المستوى النظري إياه ،

وإذا كنا ، قلما نعثر على ملحد — عربي على الأقل — ابتدأ إلحاده من الأدلة العلمية أو مؤمن إبتدأ إيمانه من الأدلة الإيمانية المركبة — الوجود والحدوث — فاننا نجد القاعدة في الإلحاد ، أو البداية على الأقل ، بداية سياسية أو إجتماعية . قد يأتي الدليل فيما بعد ليستعمل كمبرر لها . كذلك الحال مع الإيمان الذي نجده غالباً يبدأ من الوجدان .

وإذا عدنا إلى الأصول الإسلامية في هذه المسألة ، وجدنا القرآن الذي يقدم الإسلام على أنه دين الفطرة ، يعطي الأولوية للأدلة التي تمس الوجدان ويكثر منها بما لا يتناسب مع أدلة الحدوث والوجود في القرآن عدداً ، دون أن تفقد هذه الأدلة قيمتها العلمية بل تصبح هذه القيمة العلمية داعماً أساسياً للايمان الوجداني .

ولعلنا هنا نجد جذر الخلاف بين ابن رشد والغزالي حول الإعتماد على مناهج الفلاسفة في الاستدلال أو الاعتماد على المنهج القرآني الذي سماه ابن رشد : « العناية والاختراع ». ولعل السر في الموقف الاسلامي من هذه المسألة هو أن توجهه الأساسي للعامة، لأنه يحمل مشروعها أساساً، دون أن يهمل دور الخاصة وفعاليتها(١) لذلك فهو يبدأ من الوجدان أو يركز عليه باعتباره المناخ الذي يتأسس عليه الايمان الشعبي ، ويبدأ منه إيمان الخاصة أيضاً .

على هذا الأساس نرى أن الحاسم والقاطع في هذا النقاش هو النزول به إلى مستواه السياسي .

هنا نرانا مضطرين إلى شيء من التبسيط .

ونبدأ بالتساؤل : في بلد عربي ما ، ترد الأخبار بالتضييق على أعضاء وكوادر وقيادات الحزب الشيوعي ، فماذا يكون الموقف الشعبي ؟

لم يكن هناك موقف شعبي يحتج بشكل واضح على موقف السلطة من الشيوعيين . قد يحاول البعض تفسير ذلك بأن الذاكرة الشعبية في البلد مملوءة بالممارسات التي قام بها الشيوعيون أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . ولكن الواقع هو أن هذه الممارسات نفسها (٢) والموقف الشعبي غير المبالي الآن ، يجدان تفسيرهما في إسلامية الجماهير ، التي تعتبر أن اسلاميتها تلك هي سبب القمع الذي تلقته فيما مضى ، مما جعلها تسكت عنه مرة أخرى ، أي عندما طال من يفترض أن ممارسيه هده المرة ينتمون اليهم :

بل ويجرؤ البعض على القول بأن موقف السلطة في ذلك البلد ازاء الشيوعيين هو أحد المواقف التي تلقى قبولا شعبياً .. دون أن يعني ذلك ارتخاء في التمسك بالديموقراطية .

ولا بأس هنا من العودة بالذاكرة إلى أواخر عام ١٩٧٦ ، عندما صدر كتاب لقائد سياسي في بلد عربي . تحدث فيه سلبياً عن الماركسية والشيوعية وإيجابياً عن الاسلام والتراث الإسلامي . لقد لاقى هذا الكتاب حالة من القبول الشعبي المشوب بالشماتة .

هنا بالذات يصبح بامكاننا أن نلتمس أسباب « التعقيد إلى

الحد الأقصى لنضال أحزاب الطبقة العاملة وخلق ظروف شديدة الصعوبة أمامها ...» حتى لا نضطر إلى الاعتذار عن عدم توسع الطبقة العاملة وأحزابها عددياً بكون « دور الطبقة العاملة لا يرتبط بعدد هذه الطبقة ولا بمستوى تمركزها » أو أنه « لا يتوقف بالدرجة الأولى على عدد أعضاء الحزب الثوري وحجمه ، بل على برنامجه وممارسته الثورية المنسجمة ..» هذا البرنامج وهذه الممارسة التي كنا قد أثبتنا سلفاً بأنها معاقة « لأن مجرى التطور قد عرقل تكون الطبقة العاملة ونموها وتطورها ووعيها الطبقي » ، « وفي ظل هذا التركيب الطبقي للمجتمع تعرقل التطور الاجتماعي والثقافي والفكري، واستمرت ثانية الخرافات والأفكار الغيبية والظلامية »(٣) .

من الملاحظ بوضوح أن هذا الكلام ، يحدد اشكاليات ولكنه لا يفسرها . وندعي أن التفسير الصحيح لهذه الاشكاليات كان وما يزال يجد أساسه في « الغربة » المتأتية عن كون الفكر الإسلامي هو الأساس في تكوين مجتمعاتنا ، وان التوجه إلى خوض معركة التحرر الوطني والاجتماعي ، لم يعد يكفي فيه أن نأخذ الاسلام في « اعتبارنا » ثم نعود إلى نصوصيتنا ثانية فندرجه « ثانية ؟» في الخرافات والأفكار الغيبية الظلامية . فنبلغ بذلك أقصى درجات تناقضنا . هذا التناقض المبسوط نظرياً وعملياً يتراوح بين إيمانية عدد من شيوعيينا وبين الاصرار على بناء العلاقات مع من يتوفر من رجال الدين الذين لم يتخلوا يوماً عن « الخرافات والأفكار الغيبية والظلامية » . والذي وصل بنا إلى حد القبول ، ومن ثم

التعصب في محاولة ايصال رجل دين إلى الندوة البرلمانية اللبنانية عام ١٩٧٤ . الغربة إذن متأتية من هنا .

ولا نكون ظالمين إذا قلنا بأن مشروعات سياسية هذه أبعادها ، تتماثل في سعيها إلى السلطة في نهاية المطاف ، مع مشروعات مثل مشروع شاه ايران في كونه منفصلا عن المجتمع ويأتي اليه من خارجه ليحكمه . ولا أدري ما إذا كنا على استعداد للاعتراف ، لا بضآلة أعداد أحزاب الطبقة العاملة بل بتناقصها النسبي ، رغم الطول النسبي في عمرها ، ورغم فسحة الأحداث اللبنانية على المستوى اللبناني .

وفي حين أن مقولة « الارتداد الديني » في القرن العشرين ! ! تظل قاصرة عن وصف وتفسير ما يحدث حولنا ، بل تتضمن قدراً من المعاندة والسذاجة في التفسير ، يبقى لافتاً للنظر أن احدى الفصائل في حركة التحرر الوطني العربية ، اتيح لها من خلال الجذور الاسلامية التي ابتدأت منها ، حالة من العمق الجماهيري العربي والاسلامي لم يتوفر لغيرها حتى الآن . وهي ما زالت رغم الأزمة التي نمر وتمر بها ، ورغم الأخطاء الصعبة ، لها من وهج هذه الجذور ، في الذهنية الشعبية المتعبة ، فسحة من امكانية التسامح تتميز بها عن غيرها .. وإذا كنا مصرين على التصنيف يميناً ويساراً لتفسير هذا الأمر ، يتأكد أننا ما زلنا مصرين على البقاء نباتاً برياً خارج حركة الجماهير التي يبدو أنها بهذا المقياس سوف تبقى على اليمين .

نموذج افغانستان :

لعله جدير بالذكر أن الحالة التي نصفها في الشعوب العربية، نجد مثيلها في الشعوب الاسلامية غير العربية .

ولعل نموذج افغانستان الآن خير دليل على ذلك .

لا بد أن نتفق ، بداية ، على أن الهجمة الاسلامية الواسعة على حكومة « نور طرقي » لم يكن سببها علاقة الحكومة تلك بالاتحاد السوفياتي ، والكل يعلم أن علاقة « محمد داود » بالسوفيات كانت وثيقة للغاية ومنذ البداية أيضاً . ولا يخلو من دلالة أن يكون الكولونيل « عبد القادر » ، أول وزير دفاع في حكومة « طرقي » هو الذي وقف إلى جانب « محمد داود » في انقلابه على الملك محمد ظاهر شاه عام ٧٣ ، كما أن « بابراك كارمل » الذي عين نائباً لرئيس مجلس الثورة بعد انقلاب « طرقي » هو الذي كتب البيان الأول لانقلاب الرئيس داود .

يقول طرقي : « إن الاتحاد السوفياتي كان موجوداً قبل الثورة وكان ينفذ (١٢٠) مشروعاً في أنحاء أفغانستان ، هو وبقية الدول الاشتراكية »(٤) . هذا بصرف النظر عن دور الاتحاد السوفياتي في بناء وتسليح الجيش الافغاني (٥)، ولم يكن السبب كذلك صدام « طرقي » مع رجال الدين ، لأنهم تعرضوا أيضاً في حكم داود إلى اضطهاد شديد ، ويعترف « طرقي » بذلك عندما يرد على سوال فهمي هويدي عن مصير رجال الدين المعتقلين قبل الثورة

الحاكم لا يتجاوز (٥٠ الفاً) — مع المبالغة المعتادة في هذه الحالات — دلالة على أن الحزب هو استثناء على الـ ١٥ مليون نسمة .

وإذا كانت مؤلفات « طرقي» الاثنا عشر لم يتخذ قرار بأدخالها إلى أفغانستان تحاشياً لما تسببه من سلبيات جماهيرية ... وإذا كان تحاشي « طرقي» لإشهار الهوية الفكرية للثورة ، يدل على شيء ، فعلام يدل ؟ إنه يدل على أن الاسلام ليس مجرد عائق مرحلي ينقضي بانقضاء المرحلة ، إنه أبعد وأعمق من ذلك كله .

٢ — المشروع القومي :

أما أصحاب المشروع القومي ، فقد اكتشفوا خصوصية مشروعهم ، الذي تزامن طرحه مع صراعنا مع الغرب . فجاء متطابقاً مع مشروعه ، بمقتضى الغلبة وتأثيراتها البنيوية ، مما جعلهم — أي القوميين — يبحثون عن الخصوصية لاستخدامها كاضافة وعلامة تمييز . ولقد تم العثور على هذه الخصوصية في اتكاء المشروع القومي على الاسلام تاريخاً ، والذي كان التعبير الآخر عنه هو عدم أهلية المشروع القومي العربي للطلاق مع الاسلام .

ولما كان القوميون العرب قد قرأوا تاريخهم بعين أوروبية ، فقد استدرجتهم هذه القراءة إلى الوقوع في اشكالياتهم الخاصة أيضاً . إن أوروبا لم تعان — نظرياً على الأقل — من اندفاعتها نحو العصر ، بل كانت تلك الاندفاعة هويتها وتاريخها ، ولم تعان من الخروج على تاريخها ومنه ، والذي هو في النهاية تاريخ متقطع ،

محكوم بفواصل ، وإن كانت لا تلغي الاستتباع ولكنها تنزل به
إلى مستوى من الضيق يلغي الوحدة التاريخية ... ومن هنا استطاعت
المادية التاريخية أن تتطابق مع تاريخ أوروبا ، في وصفها للمراحل
أو الأدوار ، ولم يبتعد الفكر الرأسمالي عن الماركسية كثيراً في هذا
الأمر ، مما يؤكد بالتالي أن المسألة هي مسألة الواقع لا الاطار
النظري . وإذا كانت أوروبا يصدق عليها ذلك ، فانه لا يتأتى له
الصدق في الحالة العربية . لأن تاريخية الأمة العربية ليست وصفاً
برانياً وليست تعبيراً ظرفياً . وإذا ما استعمل الاستتباع في وصف
المسافات المتداخلة بين مراحل التاريخ العربي فانه استعمال يتضمن
قدراً من التسامح العلمي . خاصة فيما يعود إلى تاريخ العرب في
الاسلام، إذ تبقى الوحدة هي التعبير الأكثر دقة .

ثم أن القوميين العرب يرفضون تعبئة تاريخهم في القوالب
والنصوص الماركسية — كما يؤكدون — حتى في أقصى درجات
إيجابيتهم نحوها ، ومن هنا تمسكهم المعلن بمسألة « الشخصية » التي
تستند إلى إيمان بأن تاريخ الأمة جزء من ذاتها ، ومع التخلي عن
جزء من الذات لا تبقى أي ضمانة للحفاظ عليها .

إذن لا بد من تميز ما في العلاقة بالتاريخ ... هنا استحدث
القوميون العرب مسألة الأصالة والمعاصرة .. فالذاكرة للتاريخ
وللعصر الحضور .. وإذا كان المشروع القومي في هواجسه وهمومه
هو مشروع هذا الحضور فان النية متوفرة في الوفاء للجذور ..
وذلك قدر كاف ... فيبقى التاريخ متكأ .. قد تستند اليه ، ولكنك

لاتعتمد عليه،وفي حالات تستغني عنه دون مانع من أن تعود اليه .
هكذا يعقد القوميون العرب صلحاً مع تاريخهم الذي بعضه الإسلام.
أو بعضه بعض الاسلام .. إذ لابد من الانسحاب من المشترك
الإسلامي الذي يترتب على الأخذ به رؤية التزام مغاير تجاه الأمم
الأخرى التي لها هذا المشترك — الاسلام — .

وتصبح المصلحة القومية هي القاطرة التي تنقل العربي إلى
تاريخه لينتقي ما يحتاجه من مفرداته احداثاً وأشخاصاً وأفكاراً .
يتكافأ في ذلك أبو سفيان ونور الدين محمود ، وابن الزبعري ،
وابن خلدون .

على أن هذه المصلحة لم يتح لها حتى الآن أن تمارس دورها
المرسوم نظرياً تمام الممارسة وبالضمانات المطلوبة ، والمرات القليلة
التي تأتي لها ذلك فيها ، عاد القطري ليحضر لها المطبات ، مرة من
موقع ديموقراطي ؟ ومرة من خلال تنظيرات يحتال فيها القطري
على القومي ويقنعه بضرورة أن يتركه يمر — أي القطري — لينمو
قطرياً باتجاه قومي ..!

وهكذا وجد الذين اعتبروا الوحدة هي جمع اصفار ،
صداهم الراهن في الذين يقفلون باب القطر بدعوى الانهماك
القومي في تحويل الصفر إلى رقم .

يمكن هنا للاسلاميين الذين لا يشهرون اسلامهم سلاحاً في
مواجهة الهم القومي ، أن يؤكدوا أن هذا الهم — والوحدة أهم
تعبيراته — لم يتوفر له — في مثال الوحدة — من خلال التنظير

والممارسة القوميين حتى الآن ، الأرضية الايديولوجية ، التي تنقله من الاطار الذهني لتدخله في العملية التاريخية مشفوعاً بما يقتضي من أسباب وشروط الاستمرار . أما إذا وصل الأمر إلى الاسلام فانه يحوله من مستوى الخيار الذي يتضمن ويبيح نقيضه، إلى مستوى الاختيار الذي يسقط بديله تلقائياً .

هذا .. وتنتهي علاقة القوميين العرب التصالحية مع الاسلام إلى التناقض عندما تم العودة اليه والاحتكام إلى قيمه وأحداثه في التاريخ ، فيستدعى الأشخاص والأحداث ، المجازر « كربلاء» والقاتل « يزيد » والمحق هو « الحسين »... والمحق الملتزم بالقيم، الذي يعرف الدهاء ولا يستخدمه هو « علي» والخصم ، المتهم ، هو « معاوية » ..

إن ذلك يعني في ما يعنيه ، انحيازاً لفظياً . مؤقتاً بالحاجة إلى الاسلام .

هذا الانحياز محكوم بشعور سري بأن الجماهير مع الاسلام ولا تستطيع أن تأخذها ولاء وموقفاً إلا من خلال الاسلام .ولكن، لأنها مع الاسلام ، المستمر ، غير المنقطع ، لا تعطيك عندما تتطلب منها ، بل تستخدم تطلبك حجة عليك ومنطلقاً لرفضك وإدانتك .

هل نحن مدعوون ، لتصحيح هذا الوضع ، إلى الغاء القومي لصالح ما هو اسلامي ؟ قد نصل إلى حافة الخيانة ، ونجافي الواقع ، على الأقل ، إذا وصلنا إلى هذا الشعار .. ولكننا مدعوون لتصحيح

المسيرة لانجاز الهم القومي . .وذلك بأن نضع الحصان أمام العربة ، كما هو التعبير الشائع تماماً ، لا أن نلغي القومي لصالح الاسلامي، بهذا التبسيط .. إذ لا تعارض ، بل بينهما تراتب ، وكما هي علاقة الخاص بالعام الذي لا ينفيه بل يتضمنه ويضمنه في آن . وإذا كان الاشكال قائماً في من هو خارج الاسلام عقيدة ومفترض أن يكون داخل القومي هماً .. وبالتالي فلا بد له من الانتماء . اليس باستطاعتنا أن نميز بين انتماءين للاسلام : الانتماء الثقافي والإنتماء العقيدي .. بذلك ، بالانتماء الثقافي تحديداً ، يمكن لنا أن نحدد مشتركاً ، يسهل اختياره . بدل أن نلجأ ، كما تلجـأ الانعزالية اللبنانية ، إلى تلفيق تاريخ .. لأنـه ملفق ، يظل أجوف حتى يمتلىء بمسخ ثقافي وحضاري آخر .. غربي وغريب .

٣ ـ الاسلام القطري :

كما أن التجزيئيين في التاريخ الاسلامي (الاخشيد وابن طولون وسيف الدولة الخ) قد انتجوا اسلامهم ، فقد انتج القطريون العرب اسلامهم ، وكانوا أكثر قرباً من أوروبا في تعاملها مع المسألة الدينية . ففي حين أن المسيحية الأوروبية تحولت على يد القوى الحاكمة والمهيمنة على عملية الانتاج ، في مختلف المراحل ، إلى غطاء ايديولوجي لهذه القوى ، بفصلها عن الشأن العام وتحويلها إلى مسألة خاصة . فقد استفاد العرب القطريون من

هذه المسألة ، وعملوا وما زالوا يعملون على تحويل الاسلام إلى خشبة خلاص فردي ، لا يتماشى مع الشأن العام ، ولا يتطابق أو حتى لايتقاطع مع حركة التاريخ، بل يقطع معها نهائياً ..وانتجوا فيما أنتجوا توابعهم الفكرية، التي تلتمس لهم في الفكر الاسلامي مبررات هذه التوجه ، قصراً دون شك .

على هذه القاعدة التي تستمد جذورها التاريخية ، أو تجد أصولها في أوائل العهد الأموي (الإرجاء والجبرية) كمشروع نظري لاعفاء الحاكم من مسؤولية انعدام العدل ، واعطائه الحرية في التصرف والسلوك ومصادرة الاعتراض الجماهيري .

على هذه القاعدة امكن لهم الخروج من الاسلام سلوكاً وعقيدة . دون أن يشعرهم ذلك بالخطر ، أو يجعلهم يتوقعون مآلاً خطراً لاختلال التجانس بينهم وبين المتحد الاجتماعي الذي ينفصلون عنه ويحكمونه من خارجه .. ولكن هذا المتحد يصل في وعيه إلى الاحساس الحاد بالتحدي فينطلق اليهم من الداخل ليبطل مشروعهم .. من هنا وحدوية الجماهير العربية رغم كل الاساءات والمنفرات وعوامل التيئيس .

ومن هنا ثورة ايران ، وحدويتها أيضاً واسلاميتها ، رغم أن عملية « التحديث » فيها ، كانت أسرع وتيرة من أي عملية أخرى في المنطقة وأكثر عمقاً من عملية التغريب « الكمالية » ولم يكن يوازيها سرعة إلا خروج أو ابتعاد المؤسسة الحاكمة عن المجتمع المحكوم ، مما شكل بالتالي مقتل تلك المؤسسة .

الانعزالية داخل الاقطار :

إن الإسلامية الهشة للعرب القطريين ، مع هشاشة القطرية أصلاً ، هي التي تتسبب في توليد الأزمات القطرية الحادة في كثير من الحالات والنماذج .. منها الانعزالية القطرية ، أي الانعزالية داخل الاقطار . وإذا كان النموذج اللبناني جاهزاً للوصف والتحليل ، فإن هناك نماذج أخرى في أقطار عربية في حالة كمون وتختلف سعة وضيقاً ، قوة وضعفاً .

إن هذه الانعزالية – قياساً على المثال اللبناني – ربما كانت الآن تسجل – ظاهراً – انتصارات جزئية لصالح مشروعها – تجزئة التجزئة – ولكن ليس من المقطوع به أن هذه الانتصارات تقوم في نفس المشروع ، بل في لقائه مع المشروع الاساسي للاستعمار الحديث في المنطقة .. المشروع الصهيوني .

رغم النجاحات الجزئية الظاهرة ، يمكن تحديد مظاهر الأزمة المزمنة التي تعتور المشروع الانعزالي بما يلي :

١ – أصحاب المشروع ، غربيو الهوى ، والهوى الغربي ، في مصادره ، في الغرب – ايديولوجياً وسياسياً واقتصادياً – في اتجاه التوسيع (السوق الأوروبية المشتركة) ، ومصلحياً باتجاه العرب والمسلمين . فهل يقع الأوروبيون في أسر الشعور الاقلوي، الخارج على طاعة حركة التاريخ .

٢ – هم قطريو الهم . ولكن الهم القطري ، رغم انعزاليته،

يدرك أصحابه أن النهوض به ، بشروطه القطرية مستحيل ...
من هنا ما يبدو من تناقض الانعزالية وانتحارية مشروعها .

٣ ــ عندما يمعن الانعزالي في انعزاليته يصل إلى أزمته إذ يقدم نفسه رائداً من رواد القومية في الوطن العربي ... هذا والقومية والعروبة في ذهنه ، تعني الاسلام ... هنا تحتدم المعركة بين القومي والقطري والأممي والانعزالي ، وتختلط الأوراق أطرافاً ومشروعات ، بحيث يصعب على المراقب أن يعرف من يقاتل من؟ أو من يقاتل مع من ؟

لعله من الوضوح بمكان أن سبب التعقيد والتداخل في المعركة ــ أطرافاً ومشروعات ــ هو اشكالية الاسلام .

٤ ــ المشروع الاسلامي :

ظهر الاسلاميون وكأنهم بدأوا من استجابات لمجموعة من التحديات .. لا من قناعة بمشروعاتهم ، متأتية عن رؤية الواقع في حركته ، وعن قراءة الاسلام من نقطة تطابقه مع مقتضيات هذا الواقع وتلك الحركة .

هذا الكلام لا يريد أن يقلل من أهمية وإيجابية المسائل النظرية والعملية التي أنجزها الاسلاميون من خلال استجاباتهم وردودهم على التحديات ، ولكنه يريد أن يؤكد أن عملية تقديم الاسلام مشروعاً ، حتى تضمن عدم وقوعها في مجال نقيض الغاية التي تحكمها ، لابد أن تكون محكومة بوعي الذات أولا ، والتي هي

شرط وعي الآخر وأساس التمايز عنه ، باعتبار أن هذا التمايز مطلوب كضرورة يقتضيها الواقع نفسه .

من هنا كان مشروع الاسلاميين (الاخوان والتحرير) مجموعة ردود على القوميين والأمميين والقطريين ــ على الغرب والشرق معاً ــ ايديولوجياً وثقافياً وسياسياً ــ دون أن يؤدي ذلك إلى اخفاء أو تعطيل عملية انضاج عدد من الطروحات النظرية في هذه المستويات كافة . هذا في حين لم تستطع الوهابية أن تندمج في المشروع الاسلامي ، بل تحولت مع النفط إلى غطاء لقطرية مزدوجة (اسلامية ــ عربية) فكان عليها أن تغطي هذه عندما تنكشف وتستر تلك عندما تتعرى .

من هنا لوحظ ويلاحظ في تاريخ الاخوان والتحرير ، أنه قد يتفاقم التحدي الموجه من طرف ما من هذه الأطراف ــ الضد ــ نحو الإسلام ، فتحتدم المعركة إلى حد أن يصاب الصراع بنوع من العمى ، والعمى السياسي تحديداً ، مما يجعل الحب يصب في طاحونة أخرى .

بذلك كانت وما تزال محكومة آلية العمل الاخواني والتحريري. مما أغرى الأطراف الأخرى بتوجيه الاتهام السياسي له ، وسمح بالتالي لعدد من التسللات والاختراقات جعلت الاتهامات مبررة وكانت النتيجة أن وقع المشروع الاخواني والتحريري في ممارسات وعلاقات ، كان في الاساس مشروع رد عليها . وإذا كانت قطرية أو تجزيئية الوهابية وتبريريتها السياسية تفسر موقفها المذهبي(٨) ،

فان اسلامية الاخوان والتحرير تصبح مثقوبة وآهلة للتوصيف بسلبيات القطرية — التجزيئية — عندما يصطدم المسلم بالعصبوية المذهبية والاتجاه اللاوحدوي عند التحرير والاخوان معاً .

مما يعني في النهاية احباطاً للمشروع الاسلامي نفسه . وإذا كان التعليم العقيدي عند التحريريين لا يسمح بالجمع بين العضوية وشيعية العضو ، ويصل إلى الحكم ببطلان العمل العبادي للعضو إذا كان مطابقاً للفتوى الشيعية ، ويفترض صراحة الانتقال من مذهب إلى مذهب للانتظام في المشروع . فان الملاحظ أن الطابع المذهبي يغطي اهتمامات ومشاغل الاخوان .. فكراً وبشراً ،ولعل ذلك ما يفسر عدم امتداد الاخوان تنظيمياً إلى صفوف الشيعة ، والذي يبدو أن سببه الوحيد هو عدم اهتمام الاخوان به أصلا ... هذا في حين تقف رؤية الامام محمود شلتوت ، شيخ الأزهر في عبد الناصر ، للمسألة أكثر تقدماً من رؤية الاخوان والتحرير معاً .

هكذا يدور الهم الاسلامي على نفسه ليخرج من صفاته ، ويبتعد ويصبح خارج الإسلام وخارج حركة التاريخ الإسلامي .

إن هذا المعضل الذي وقع فيه الاسلاميون في الوطن العربي ، قدمت الثورة الإيرانية ، بواقعيتها الاسلامية ، قاعدة لتجاوزه . فبدأت من الاسلام، من موقع عقيدي، كان وما يزال البدء منه في كل الأمور ، يسبب الكثير من الارباكات للكثير من المتعاطفين معها من مواقع أخرى . وتبعاً لذلك ، تمتنع أول ثورة ، على النعت بأنها مشروع غربي للرد على الشرق أو مشروع شرقي للرد على الغرب.

وفي نفس الوقت تقف هذه الثورة ، بفكر قائدها الخميني ، بما هو معادل سياسي لجماهيرها ، عند اشكالية تاريخية هي اشكالية الاندماج الاسلامي . فيرى الامام الخميني المسألة في إطارها التاريخي والواقعي ولا يتعامى عنها . فهناك شيعة وسنة ... ولا يمكن أن يتحقق نهوض اسلامي بثورة مذهبية سنية كانت أو شيعية .. والنهوض الاسلامي لا يمكن أن يتم إلا على قاعدة الوحدة. وكل عمل باتجاه المذهب انما هو مشروع احباط للثورة وللمشروع الإسلامي ، وإن كان ذلك لايعني شطباً لشيعية الشيعة وسنية السنة ، وإنما يعني اعادة أسلمة الجميع — مجتمعين — من ضمن شروط نجاح المشروع الاسلامي ، الذي هو مشروع الجميع أو لا يكون.

ولعل مراجعة سريعة لكتابات الامام الخميني — دروس في الجهاد بوجه خاص — تبرز بوضوح كامل أن الهم الاسلامي الإيراني لا يرى في غير الوحدة ضماناً له .. ومن هنا يتجلى هذا الإلحاح المستمر على الوحدة في كل كلمة يقولها الخميني .

ولعل في الاستجابة الجماهيرية الاسلامية العامة — شيعة وسنة — في الأقطار الاسلامية كافة ، والعربية منها خاصة ، للثورة الإيرانية وقائدها بفكره وممارسته ، تعكس إلى حد كبير ارادة اسلامية في الوحدة والاندماج والانخراط في انجاز مشروع المستقبل الاسلامي وتثبت كيف أن العمل الاسلامي على مر الفترة الماضية ، لم يستطع أن يتماثل مع هذا الكامن الجماهيري ، لأنه تجافى عن الوحدة شرطاً وطريقاً .

٥ – إلام تريد ان تنتهي هذه المداخلة ؟

إنها ليست دعوة سريعة وساذجة إلى المراجعة . بل هي دعوة متواضعة إلى تأسيس منهج في التعاطي مع الإسلام لا يكون طابعه ارتدادياً . بمعنى البدء من الاسلام والمرور بمراحله وتشكلاته الثقافية والسياسية والاجتماعية خلال المراحل كافة بهدف استجلاء وتحديد القاعدة الايديولوجية التي توفر الضوابط المنهجية في تقديمه ، سواء كان ذلك من ضمن مشروع اسلامي أو غيره .

هذه العملية باستطاعتها أن توفر علينا الكثير من المشقات والارتباكات والتشويهات ، على مستوى المصطلح وعلى مستوى النموذج أو الطراز التحليلي المنهجي الذي يوفر بدوره درجة أعلى من الصدق والعلمية في الرفض أو القبول . على أن ذلك لايريد أن يقلل من قيمة جهود (الطيب تيزيني ،حسين مروة ، أحمد عباس صالح ومحمد عيتاني وغيرهم) ولكنه يريد أن يؤكد أن هذه الجهود وأمثالها تبقى محكومة بمسافة ما بين الاسلام ونقيضه، وبالتالي لن يكون بمستطاعها أن تكون قراءة للاسلام . إذ لن يكون أبداً بمقدور المعرفة بالمفردات الاسلامية ، فكراً واحداثاً ، مهما بلغت، أن تشفع لمنهجية غريبة عنها . وهنا سر التناقض أو الضعف.

كما أنها تريد أن تشير إلى حلم عربي ، يبتدىء من خلال هذه الجهود مجتمعة ، حلم « بثورة ثقافية » .. لن تأتي ، لأن قياس الاسلام على الكونفوشيوسية قياس ساذج ومتسرع وأجنبي :

في نفس الوقت هي دعوة إلى الكف عن « الانشاء » القومي في التعاطي مع الاسلام والانتقال إلى رؤية علمية لموقع الاسلام في حاضر شعوبنا ومستقبلها إذا كنا فعلا مسكونين بالهم القومي ، ونبحث له عن امكانات النجاح .

وهي في النهاية ، دعوة لإعلان اسلاميـــة المشروع الإسلامي اهتماماً وعملا ، والخلاص من مرحلة الإعلان إلى مرحلة السعي، بما يقتضيه من شمولية ومن جهود مستقبلية يفترض فيها أن تغاير مجموع الجهود التي بذلت حتى الآن . كل ذلك من موقع المراقبة في البعض وموقع الاهتمام النسبي أو الكلي في البعض الآخر .

(١) نستعمل مصطلح العامة والخاصة ، في مقابل مصطلح الجماهير والنخبة ، وليس بالمفهوم التحريفي الذي ألبس لهذين التعبيرين .

(٢) وقف بعض الأحزاب الشيوعية العربية موقفاً سلبياً منها أيامها . وخاصة الحزب الشيوعي اللبناني .

(٣) وثيقة المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي اللبناني – « السفير » ٦/٨/١٩٧٩ . ص٨

(٤) فهمي هويدي « حديث في أفغانستان » – دار الكلمة . بيروت ، ط – ١ .

(٥) راجع حازم صاغية – « السفير » .

(٦) فهمي هويدي « حدث في أفغانستان » .

(٧) المصدر السابق .

(٨) تعبيراته : الحكم بكفر الشيعة ، والتذرع بذلك لتبرير الظلم اللاحق بهم داخل المملكة السعودية ، والحيلولة دون اندماجهم في السوية الإجتماعية للسكان . رغم أنهم يشكلون ما لا يقل عن ٢٥٪ من المجموع العام .. وأغلب النفط ينبع أمام أعينهم ومن بين أقدامهم .

مَعَ الثورة الإيْرانيّة ... بشروطها
دَعوا إيْران تأخذ فرصتها

ليس هناك من مجال للتقليل من أهمية الجهد الذي تبذله الدوائر الاستعمارية في متابعة ورصد حركة الصراع في المجتمعات التي تكون معنية بما يدور فيها ، بمعزل عما يمكن أن تثمره هذه المتابعة، مضافاً اليها ما يتناسب معها من جهد عملي ، من نتائج ، إذ أنها ليست هي التي تحسم في كل الأحوال . بل تأتي المنعطفات الثورية والانتفاضات التي تحدث في هذه المجتمعات لتبطل مفعول الإستعمار العلمي والعملي ، وتباعد في المسافة بين الجهد المعطى والنتائج المتحققة .

هل هو موقف « شعوبي » ؟

يقابل ذلك تقصير بالغ في هذا المجال ، بالنسبة لقوى التحرر، خاصة منها ، ما يكون موضوعياً وذاتياً على تماس مباشر مع مجتمعات وشعوب ، قد تغري حالة السكون الظاهر فيها ، بصرف النظر عنها ، والركون إلى الجهل بما يجري داخلها ، حتى إذا

انكشف أن هذا السكون عابر ومؤقت كانت الدهشة السمة الرئيسية في الموقف ، في حالي الاستجابة والرفض معاً . وإذا كان هذا التعميم يبدو ظالماً بعض الشيء ، وكان لابد له من استثناءات فإن قوى التحرر العربي ليست في عداد هذه الاستثناءات قطعاً ، بل إننا نجد في حال تقييمنا للجهد العربي التحرري في رصد حركة الصراع في مناطق أخرى من العالم ، أنه يتناسب تناسباً عكسياً مع الاحتمالات الموضوعية للتأثير المتبادل . سلباً وإيجاباً ، بين الواقع العربي في حركته وواقع الشعوب الأخرى .

ولعله من السهولة بمكان ، أن يعثر القارىء العربي في أدبيات حركة التحرر العربي ، على تحليل مدعم بالأرقام ، مستند إلى التاريخ السياسي والاجتماعي . لبلد ما ، في جنوب شرقي آسيا . بينما يلاحظ أن الاهتمام ، ببلد كأفغانستان لم يأت إلا مترافقاً مع حدوث تحول حاد في المجرى السياسي لهذا البلد . ولن نقع في نفي التأثير الفعال لمجمل الأوضاع في منطقة جنوب شرقي آسيا على الأوضاع العربية ، ولكن يبقى الوضع في بلد كأفغانستان . أكثر تأثيراً ودلالة ، وأكثر جدارة بوعيه وحساب مؤشراته ، ولا يجوز أن ننتظر حدثاً ما ، كبيراً ، في بلد ما ، حتى نبدأ سعينا في التفسير والتحليل والتوقع ، لأن ذلك بالغاً ما بلغ ، لن يلغي الأثر الموضوعي السلبي للتقصير السابق .

ولعل في نمط تعاملنا مع ثورة الشعب الإيراني ، بما نطرح عليها من تساؤلات ونضع لها من احتمالات ، شاهداً أكثر دلالة

وتحديداً لهذه الاشكالية ، إذ من الواضح أننا لم نستطع الخروج من دائرة المفاجأة بما حدث ، ووقع علينا كالاعصار أو الزلزال ، بما يحدثانه من حالات يختلط فيها الحماس بالحزن ، والخوف بالرهبة. وليس من سبب لذلك سوى الخطأ التاريخي الذي وقعنا فيه جميعاً، عندما انطلت علينا اللعبة الدعائية الاستعمارية اياها . فارتكبنا خطيئتنا في تفريغ ايران سياسياً وإلى الأبد ، لصالح اتجاه السلطة فيها.

وكان من الطبيعي أن يمتد هذا « المطلق » إلى سلوكنا السياسي ، ليوقعنا في ممارسة الظلم اليومي للشعب الإيراني ، ويتحول الإيراني العادي ، فرداً وجماعة ، في منظورنا وتعاملنا إلى عميل ، وبدا هذا التعامل إلى فترة ، ولعله ما يزال في حالات كثيرة ، وكأنه الرد التاريخي التعويضي على مسألة الشعوبية التي بدورها لم تأخذ من وقتنا ومنهجيتنا العلمية ما يضعها في إطارها الصحيح .. وبقينا أسرى « المطلق » ماضياً وحاضراً رغم مادية وجدلية الكثير منا .

وهكذا قفزنا سريعاً ، على كل المراحل التي مرت بها حركة الشعب الإيراني باتجاه التحرر والإستقلال ، وبالكثير من ملامحها العربية سبباً ونتيجة .

وفي أوائل الستينات ، عندما كان شاه ايران يتهم الخميني والإنتفاضة الشعبية بقيادته ، بأن وراءها جهداً وتخطيطاً ناصرياً، كنا في المقابل نتبرع بتعميم موقف قوى عربية معروفة بتبعيتها الإستعمارية ، مضمونه أن الشعب الإيراني هو الذي ارتكب خيانة التعامل مع العدو الصهيوني .. ومنذ وقت قريب جداً ، اكتشفنا

أن هذه الإنتفاضة التي ذهب ضحيتها (١٥) الف ايراني بين شهيد وجريح ، إنما كانت احتجاجاً ورداً على علاقة السلطة الإيرانية بإسرائيل .

عن الأنظمة الاسلامية ... وثورة ايران .

إذن نستطيع أن نقرر ، أن كسلنا و « استلشاقنا » في التعاطي مع التاريخ السياسي والاجتماعي لإيران ، وعدم تبصرنا ورصدنا الدقيق لمسار حركة القوى الفاعلة والمؤثرة في هذا البلد ، يفسر إلى حد كبير مفاجأتنا بما يحدث . وفي تقديري ، أننا حتى لو لم نسلم بكل ما مر ، قناعة أو جدلا ، فإننا نبقى نجد علامات الدهشة والمفاجأة في أكثر ما يقال ويكتب ... إذ تبقى اسلامية الثورة الإيرانية ، طرحاً وقيادة ، وإعلانا يكتسب وضوحه كلما اقتربت الحركة ، من انجاز مهمتها الراهنة ... تبقى كافية ، فيما يبدو ، لأن تفاجئنا وتدهشنا ... ونبقى حتى في أشد حالات تعاطفنا معها ، وحماسنا لها ، نحيطها بالاسئلة الكبيرة ، الكبيرة في أذهاننا فقط أسئلة هي صغيرة في الواقع ، ولكن الذي جعلها تتورم ، هو أننا لم نكن نتوقع لها أن تطرح . وإذا ما طرحت ، فان الحركات والقوى التي تطرحها ، كانت على الدوام ، تعطينا فرصة الاجابة السريعة والقاطعة عليها .. فإسلامية المعارضة الباكستانية لعلي بوتو مثلا ، وإسلامية بعض الأنظمة بما فيها نظام قابوس بن سعيد ، بضيقها أفقاً ، وتخلفها فكراً ، وما فيها من تباين فاضح في السلوكية

العامة بين تعبيراتها السلطوية وقواعدها الشعبية ، وتصالحها الدائم ، مع الإستعمار ، بل ارتهانها له على حساب القيم والمصالح الإسلامية.. بذلك كله . تكون كافية . بما لا يقبل جدلا ، لتستثير المزيد من الرفض والتشكيك في صفوف المؤمنين قبل غيرهم ...وهم ، كلما ارتفعت نبرتها الدعائية في ادعاء الإسلام ، كلما ترسخ يقينهم بأنها تبتعد عنه أكثر ... لأن عامل الإبتعاد كامن في طبيعتها وبنيتها أساساً . وهي — إسلامية هذه الأنظمة — تحمل في أحشائها كل الأسباب التي تجعل من السهل اكتشاف علامات وحدود ونهايات الطريق الذي تسير فيه ... كما أنه من السهل اكتشاف علامات وحدود ونهايات الطريق الذي تسير فيه الثورة الإيرانية . إن في طبيعة العدو الذي تواجهه هذه الثورة ، في الداخل والخارج ، وفي مجمل الشعارات والأهداف التي تطرحها والقيم التي ترتكز اليها، والحجم النضالي الذي بلغته ، والمراس الصلب الذي يطبع سلوكها قيادة وقواعد ، ما يجعل قوى إسلامية مدعاة ، تقف منها موقفاً سلبياً حاسماً ، لتؤكد بذلك أنها من قماشة تختلف عن قماشة الثورة الإيرانية لوناً وكثافة ، شكلا ومضموناً . وإذ تصر الثورة الإيرانية على إسلاميتها فهي تنفي إسلامية تلك . ويأتي تصريح القائد الخميني بأن الشعب الايراني لا يهدف من ثورته إلى إقامة نظام إسلامي مشابه لبعض ما هو قائم هنا أو هناك ، وإلا فقدت الثورة مبررها ... يأتي هذا التصريح كاشفاً لتوجهات الثورة من جهة ، ومن جهة أخرى ، مفتتحاً تاريخاً جديداً للمواجهة بين الاسلام في

خطه الثوري الصحيح ، وبين الاسلام في التشكيلات السلطوية والفكرية التحريفية المضادة ، التي تدعيه بقدر ما تبتعد عنه . ولأول مرة منذ فترة بعيدة جداً ، يبدو أن هذا الصراع قد تحول من مستواه الايديولوجي المحض ، إلى مستوى الواقع ،وفي ظروف سياسية واجتماعية وفكرية أكثر نضجاً وقدرة على تغليب الاتجاه المتقدم على الاتجاه المتحجر .

الإشتراط من الداخل :

نعود إلى دهشتنا لنرى أن في هذه المفارقة نفسها تكمن عوامل هذه الدهشة ، ولتوضيح ذلك ، لابد من الرجوع إلى « سيرة » حركة التحرر العربي ، في تعاملها ، الحديث على الأقل مع ما يمكن أن يسمى « اشكالية » الاسلام فكراً وسلوكاً في المجتمع العربي .

لقد حدث في تاريخ حركة التحرر العربي ، أنها وقعت فيما أراده وأسسه الاستعمار في المنطقة وعمل على تعميمه . وفي حين أنه فشل في هذا التعميم ، فقد كادت حركة التحرر العربي أن تسلم به . وفي حين استطاع الاستعمار أن يحول الإسلام في كثير من مفاهيمه ورجاله ، إلى مسار مغلق ، ذي موشرات ارتدادية ماضوية ، تجتذب المسلمين باتجاه يضعهم خارج حركة تاريخهم، وخارج حركة التاريخ العام، ويؤسس فيهم احساساً بالدونية الحضارية ، مما يحقق فيهم إرادة وفعلا شروط القبول بالمستعمر

رائداً وسيداً،وبفكره وحضارته شرط حياة ، ويقصر فعاليتهم الفكرية على التوليد القسري للمبررات الايديولوجية « الاسلامية» لهذا النمط من الموقع والعلاقة ... كانت هناك على الدوام وما تزال ، قوى إسلامية ، يتطابق ويتزامن داخلها موقف مبدئي من الاستعمار ، مع وعي إسلامي لهذا الموقف ، كضرورة إسلامية دون تحقيقها ، لا يتحقق الإنتماء الإسلامي الذي لا يحتمل نسبية أوتجزئة.

وفي العادة أن تستفيق حركة التحرر العربي ،على هذه الشواهد متأخرة ، وبفعل تقادم الزمن ، لتكتشف أنها أكثر من شواهد، أنها الأصل في الاسلام والمسلمين وأنها بالتالي شكلت مادة قوة ودفع رئيسية في عملية المواجهة مع الإستعمار في أشكاله ومواقعه كافة، وأن الاستعمار ، إنما كان في الواقع وما يزال يخوض معركته معها ... ومن هنا ما يبدو من أن معركة الاستعمار مع القوى الثورية ذات السمات القومية أكثر شراسة منها مع غيرها ، والتي كثيراً ما يهول بها في حالات النهوض الثوري القومي ، للاستثارة ضد الاتجاهات الثورية ، لعلمه بطبيعة الأسس والمكونات التي يرتكز اليها مجتمعنا في رفضه للاستعمار ، والتي يأتي في أساسها ،المكونات الإسلامية ، التي تظل في تطابقها مع الطموحات القومية ضمانة أكيدة للمواجهة .

من خلال هذه الاشكالية التي نسج الاستعمار خيوطها . كانت القوى الثورية العربية تجد نفسها . مضطرة للإتكاء على الإسلام في تصليب الموقف الجماهيري حولها ومعها . مما جعلها

تعقد معه ، فكراً ورجالا . نمطاً من العلاقة ، توفرت في بعض شواهدها مقادير من الصدق ، بينما ظلت في شواهد أخرى في موقع الإصرار على التناقض الكلي ، المحكـــوم بضرورات ذات طابع ذرائعي جعل الازدواج سمتها البارزة . ولكن هذا النمط من العلاقة ، ظل على الدوام ، يحمل في داخله احتمال القطيعة والتصادم ... إذ كثيراً ما كان يحدث أن يتعدى طموح المساهمات الإسلامية في المهمات المرحلية لحركة التحرر العربي ، دور التحريض ، إلى دور الدخول ، ولو نسبياً ، في تكوين الرؤية ووصف شروط النضال العربي ، نظرياً وعملياً ، أي الانتقال من دور المستخدم إلى دور الشريك ، سعياً للإنسجام مع القناعات أساساً ، وحرصاً على عدم الوقوع في تضليل الجماهير المؤمنة ، التي تقبل المساهمات الإسلامية ، يقيناً منها ، بأنها محتفظة بتمايزها، في حين أن القوى الثورية ، تتعامل مع هذه المساهمات على أنها ذات سقف محدود لطموحاتها ، لاتلبث أن تطالبها بالتوقف عنده، إذا ما فكرت بتجاوزه .حينئذ وبفعل الاصرار على الاستمرار وتأكيد التمايز ، تحصل القطيعة ... والمساهمات الإسلامية التي كانت بالأمس ضرورية ومطلوبة ، وفعلا نضالياً صعباً ، تصبح فعل خيانة وتعويق... !والسؤال أليس الإنقلاب في الموقف والعلاقة من التوافق إلى القطيعة ، يتضمن قدراً من الدهشة والمفاجأة بالطموح الإسلامي النضالي إلى التمايز ؟ مما يعني أن هذا الطموح مفترض فيه أن يبقى مصادراً باستمرار ؟ وتكبر المفاجأة والدهشة معاً ،

عندما يكون الطموح إلى شيء أكبر بكثير من مجرد التمايز ... ومن هنا هذه الدهشة الكبيرة بما يحدث في ايران الطامحة في ثورتها إلى حكم يرتكز إلى الإسلام فكراً وعقيدة .

لماذا ؟ ربما لأنها المرة الأولى في عصرنا ، أن يحدث أن لا نجد في إعلان حاد كهذا ، من حيث توجهه السياسي والإجتماعي، ما يسهل رفضه دون تبعات ، أو يسمح دون مخاطرة ، بالمراهنة على فشله ، لأنه لا يعاكس حركة التاريخ والمجتمع الحديث .. ذلك ما كان يحدث في السابق ويرسخ قناعتنا بأن الإسلام قد تحول فعلاً إلى تراث ، بما يعني هذا التحول من انقطاع عن الفعل في الحاضر والمستقبل ، وبما يعني هذا التحول من إعطاء مزيد من الحرية في رفضه والدعوة إلى الانقطاع عنه . وحتى في حالات الإصرار على الإتصال به ، لم يكن الإيمان الحقيقي هو الدافع ، بل في الأعم الأغلب ، كان التشبث بالإسلام يندرج ضمن عمليات التقريب الإيديولوجي ، من نقطة التباين ، بين المستعمر (بالكسر) والمستعمر (بالفتح) .

ولكي تتم هذه العملية ، كان لابد من بذل الجهد في تحويل الإسلام ، في مستوى العقيدة والسلوك ، إلى مناخ قدري هروبي، إلى خشبة خلاص فردي موهوم ، بقدر ما تتسع مساحة التعلق بها اجتماعياً ، بقدر ما تسلم لقوى التبعية علاقتها بأسيادها ومتبوعيها هذه المرة ، يطل الاسلام ، لا تراثاً فحسب ، بل حاملا مشروعه، وإذا كنا قد اشترطنا عليه سابقاً أن لايتجاوز حدود تراثيته ، فإن

الثورة الإيرانية قد تجاوزتها ولأنها ليست قاصرة عن الوصول والإيصال ، بل هي تحمل وعودها وقدراً من اليقين بالوفاء بهذه الوعود ، تدفعنا المفاجأة إلى الاشتراط عليها .

هنا ، لابد من التسليم بأن من حق الجميع ، على أي ثورة ، بل ومن حق الثورة أيضاً ، أن يكون عليها شروط محددة ، على أن تكون عملية الاشتراط محكومة بهاجس تعميق الثورة ، وذلك لا يتم إلا إذا كان الاشتراط من داخلها .

شروطنا على الثورة الايرانية

ونظرة سريعة على الشروط التي بدأنا نمليها على الثورة الإيرانية، توضح لنا بشكل لا يقبل لبساً ، أنها آتية من الخارج ، من مسافة بعيدة بين الثورة وبين بعض المتعاطفين معها ... ربما ثانية بسبب الدهشة والمفاجأة . إننا عندما نلتزم نظرياً ، بأن داخل حركة التاريخ البشري درجة من الوعي سواء في الخطين ، خط التقدم وخط الجمود والتحجر ، خط الثورة وخط الثورة المضادة ، نصبح ملزمين بالوقوف طويلا عند مجموعة القيم والأفكار التي تفرزها الثورة المضادة . خاصة في الحالات التي يتاح لها فيها أن تسرق الثورة ، على صعيد التعبير السياسي تاريخياً ... هذه القيم والأفكار التي تهدف إلى تعميمها عرضاً وطولا . لتشكل ساتراً يحول دون رؤية قيم وأفكار الثورة ذاتها ، متوخية بذلك منع استمرار الثورة والتواصل معها .

في هذه الحال ، لايجوز لنا ، ثورياً وعلمياً ، أن نضيف ناتج الثورة المضادة إلى حساب الثورة ، فنشترط على الثورة الإيرانية موقفاً من المرأة ، تحت وطأة الخوف من أن يكون موقع المرأة في ظل الحكم العتيد في ايران ، ذي الملامح الاسلامية الواضحة، كما هو موقعها في مجمل الادبيات العربية والاسلامية ، التي كان جل همها ، أن تتعاطى هموم القصور التي نشأت بمن فيها وما فيها ، خارج الاسلام عقيدة وشريعة ، وبناء قيمياً انصب اهتمامه على بناء المجتمع المتكافىء المتضامن ، والذي يهدف في كل تشريعاته ، عبادة وعملا ، إلى ترسيخ نمط من السلوك والالتزام ليشكل شرطاً في صياغة الفرد وتأهيله للفعالية المطلوبة في حركة المجتمع ... وكان له في كل ذلك تصوره الخاص ، ومنهجيته الخاصة ، التي لا نستبعد أنها في مجال التطبيق قد تخلق اشكالاتها الخاصة أيضاً ، ولكن من يستطيع الجزم بأن مشكلة ، كمشكلة المرأة قد أصبحت، ماثلة للحل الجذري في تجارب أخرى ...؟ نحن نشترط هنا أن لا يكون اشتراطنا متأتياً عن اعجابنا التاريخي بالاجابات التي قدمتها الديموقراطيات البرجوازية على مسألة المرأة، والتي بدأت تفرز اشكالاتها الحادة في أوروبا ... بينما التجربة الشيوعية لا تستطيع أيضاً ، حتى الآن ، أن تجزم بأنها قد تكاملت فيها الحل النظري أو العملي للمشكلة ، هذا الحل الذي ربما يزيد من صعوبته في هذه التجربة اتصاله ، بمسألة الذاتية في المجتمع الشيوعي [1] .

ثم ماذا نريد من المرأة وماذا نريد لها ؟ عودة إلى الاطار التشريعي الاسلامي وموقع المرأة فيه ، تشكل اجابة ، على أن تكون العبرة في الناتج التاريخي لهذا الموقع ، لا في البريق الخادع ، الذي طالما خدعنا ... وتبصر قليل بموقع المرأة الإيرانية في حركة الثورة الإيرانية ونضالاتها الآن ، يشكل دليلا على ما يمكن أن يكون عليه موقعها ووضعها في المستقبل ... وهل المرأة الإيرانية مستلبة الوعي بذاتها إلى هذا الحد الذي يجعلها تغتر بثورة وتعطيها من جهدها هذا القدر ، وهي تضمر لها موقفاً يعيدها إلى موقعها « الحريمي » الذي نجد أساسه التاريخي في انحرافات السلطة الأموية والعباسية ولا أثر له في كتاب الله أو سنة رسوله ؟؟.

ومن الاشتراط الأيديولوجي إلى الإشتراط السياسي :

...من المسلم به ماركسياً أن أي تأثير خارجي على موضوع ما لا يمكن أن يتم إلا من خلال القوانين الداخلية التي تحكم هذا الموضوع . وإذا كان من شأن قيام نظام اسلامي ، لا نجرؤ على وصفه بالرجعية. في إيران ، أن يفتح ملف « الأقليات ؟» الإسلامية في الإتحاد السوفياتي ، فهذا يعني على الأقل ، أن هذا الملف قابل لأن يفتح، داخلياً ، ولكن ينتظر العامل المساعد ، الذي يبدو أن تأثيره المتوقع تأثير موضوعي لا ذاتي ، بمعنى أنه قد لا يكون وارداً في ذهن الثورة الإيرانية أو برنامجها ، أن تعمل على فتح هـذا الملف . وقد لا تكون لها مصلحة في ذلك ، بل إن مصدر الحذر متأت عن احتمال وجود خلل داخلي ، لا تفعل الثورة الإيرانية شيئاً إلا أن

تعطيه فرصة للتعبير عن نفسه ... وهنا يكون الذنب ، ذنب السوفيات ، لا ذنب الشعب الايراني ، الذي لا يمكن أن ينتظر قروناً . فوق ما انتظر . حتى تحل مسألة القوميات في الإتحاد السوفياتي حلا جذرياً يبعد خطر انتفت ... ولا أدري ما إذا كان هذا الكلام لصالح أصدقائنا السوفيات أم ضدهم ؟... علماً بأن كتاب « الامبراطورية المتناثرة » الحديث ، للفرنسية « هيلين كارير دونكوس » يضيف إلى مشكلة المسلمين في الاتحاد السوفياتي مشكلة الكاثوليك . إن المشكلة كما يبدو قائمة فعلا قبل الثورة الإيرانية وبعدها والحل في يد السوفيات .

ومنذ البدء حددت الثورة الإيرانية أعداءها دون مواربة ولم يكن السوفيات في عدادهم ، رغم التعارضات الايديولوجية الكبيرة ، التي قد لا تكفي للتصنيف في كثير من الأحيان ... الذي حدث أن السوفيات هم الذين وضعوا أنفسهم في موقع عدائي . وبهذا أصبح الموقف السوفياتي حقيقاً بالاعتراض عليه ، وكان لا بد من توقع موقف سلبي نسبياً من قبل قيادة الثورة الايرانية ، لأن عدمه ، يزيد من إحراجاتها ، جماهيرياً على الأقل ، وإن لم تكن في الأساس مضطرة إلى ذلك ، وكان السكوت كافياً ، فان المسؤول عما حدث هم السوفيات أولا وبالذات .

وعلى أي حال ، فان ما حدث حتى الآن ، قد أنتج تعقيداً ما ، ولكن هذا التعقيد ، مهما بلغ ، لا يجوز أن يكون مبرراً لمحاسبة الموقف الإيراني على أنه هو المسؤول ، كما لا يجوز أن يفضي بنا

إلى تنظيرة في العلاقات الدولية ، وما يخص حركات التحرر القومي تحديداً ، تتنافى مع أبسط قوانين وقواعد ومقتضيات الاستقلال القومي ، ضمن خط التحالفات والصداقات الدولية ، لاخارجها.. وقد علمتنا ثورات التحرر القومي ، وفي طليعتها الثورة الناصرية أن يكون في رأس همومها الاستجابة الكاملة لإرادة الإستقلال التام بداية ، على أن تكون مسيرتها التقدمية القومية ، فيما بعد ، هي الموجه الأساسي في اختيار حلفائها طبقاً لمقتضيات المصلحة القومية ، وبصورة لا تنتقص من استقلاليتها قراراً واتجاهاً ... وبالتالي فان الحلفاء المتوقعين يعرفون مصالحهم ويحددون اختياراتهم طبقاً لها ، ولعل السوفيات قد اختاروا وتصرفوا ... ولم تقترف الثورة الإيرانية إثماً ، وهي التي كانت تنتظر انفراجاً ما في وضع قريب منها ، كأفغانستان مثلاً ، ليعطيها المزيد من شروط المواجهة الداخلية . ولكن زيارة « نور طرقي» المبكرة إلى طهران والتي تبعها تبدل في موقف الشاه مما حدث في أفغانستان جعلت هذا التوقع ينقلب إلى خيبة أمل ، ويتحول الانفراج إلى انسداد كامل ، لم يمنع الثورة من أن تحزم أمرها وإرادتها ويقينها بالنصر . وتتحول الاشتراطات على الثورة الايرانية أحياناً ، إلى إثارات... فتطل عربستان، المنسية، التي زوجت كرهاً، للنظام الايراني،رغم اعتراض بعض محبيها ... ولأن ذلك تم من موقع قومي فلااعتراض عليه ... ولا نريد هنا أن نعترض ، لأننا على يقين بأن طريق النضال والتحرر القومي ما تزال وستبقى إلى فترة طويلة ، مشغولة

بمجموعة من السدود ، لابد من سلم أولويات في عملية التواجه معها لإزالتها ، وفي المقابل ، بالنسبة لإيران ، أليست الأولوية الآن ، هي لازالة الكابوس ، المعطل لحركة المجتمع الايراني ؟ لتأخذ إيران فرصتها ... ثم أليس مسموحاً لنا أن نقتنع أن حق تقرير المصير لا يتجه دائماً اتجاهاً ذاتياً ، بمعنى أننا نراهن أيضاً على أن الحكم الإسلامي الثوري العادل ، قد يعطي المسألة اتجاهاً آخر — هل هذا كفر قومي ؟ — وإذا كان ذلك مستحيلاً ، فلا يجوز الاعتراض — بالمثل — على فتح ملف القوميات الأخرى في الإتحاد السوفياتي ... ثم لماذا هذه الاثارة الآن ... لتكتمل الثورة.. عندئذ يكون الحساب أقل مشقة وأمثل نتيجة ... لماذا الاثارة ؟ ولماذا مدها إلى « الأقليات » الطائفية في إيران ؟ ألأننا نعاني من إستعصاء مشكلة الأقليات هنا ؟ فنريد بسطها ولو تخميناً على مناطق أخرى ؟

ثم في ظل أي نوع من أنواع السلطة،تتحقق مشكلة الأقليات؟ والالتزام الاسلامي الثوري ، كما هو في فكر وممارسة الرسول والصحابة ، بالانسان ، بمعزل عن مذهبه وطائفته ، التزام تشريعي وأخلاقي وحضاري ، والثورة الإيرانية تدعي فيما تدعي ،تطابقها مع هذا الالتزام وادانتها لكل عمليات التحريف التي تمت عليه وضده ... إنها إثارة أيضاً ، محكومة بالإستعجال... وكان أجدى لها ، من موقع قومي ، أن تخلي مكانها لرؤية علمية أكثر وسياسية أكثر ، للتأثيرات الإيجابية الجذرية العميقة والمتوقعة من الثورة

الإيرانية في الواقع العربي ، على امتداد ساحاته وتنوعه .

إننا لسنا ضد الإشتراط العربي خاصة والثوري عامة على الثورة الإيرانية ... وهو مطلوب وضروري لهذه الثورة كما هو مطلوب وضروري لنا ... ولكننا نشترط ليكون هذا الإشتراط صحيحاً ، أن نتجاوز المسافة الواسعة بيننا وبين الشعب الإيراني في قسماته الثورية وتاريخه النضالي وعروبة همومه واهتماماته ... بيننا وبين الإسلام في رؤيته الشمولية ، التي ليست مغلقة ضد الإعتراضات ، ولكنها تشترط الاستيعاب والعمق والعدل ليكون الإعتراض مجدياً وفاعلاً ومصححاً فيكون للمعترض أجران ... أو نظيفاً ، وإن أخطأ ، كان له أجر واحد ...

* * *

* كتب هذا المقال في خريف ١٩٧٨ ونشر في السفير آخذاً في اعتباره بعض ما كتب في نفس الجريدة حول المسائل المطروحة .

(١) لعل موقف الانشقاقي « سولجنستين » الرفضي من مسألة الانسان في حضارة الآلة الغربية يؤكد حياده فيما طرحه في هذا المجال بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، ودون أن نقع في محذور الموافقة السياسية على مواقفه وسلوكه ، نرى أن « جناح السرطان » تحمل بعض الإشارات إلى صحة ما ندعيه .

إشكاليّة العمل الإسلامي وهموم رجل الدّين في علاقته بالسياسة

لا يحتاج المتتبع لتاريخ الحركات الدينية ، قديمها وحديثها ، إلى كبير جهد في استجلاء أسباب استقطابها الجماهيري الواسع ، سواء منها ما أثمر أو ما شط به المسير ، فكلها ، على تفاوت بينها في النوع والدرجة . كانت تقوم على أساس رؤية إصلاحية ، تضيق

(*) كتب هذا المقال صيف ١٩٧٨ ، في الفترة التي ابتدأت فيها أخبار الثورة الاسلامية في ايران تطرق الأسماع محدثة الكثير من الدهشة والرغبة في النقد والمراجعة التي بـدأت خائفة عندما كانت كان النصر لا يـزال حلماً لطيفاً ولكنه مستحيل الأن الثورة الاسلامية خارج النسق الفكري المألوف.. هذا عند الكثير من المعنيين بالمتابعة والتوقع ... والبعض منهم فقط كان يراها ممكنا صعباً ، ويجترىء على تحريك بعض السواكن قولاً وفعلا ، دون أن يتمكن من الخلاص من حالة الخوف والحذر ، الى أن اخذت عمليات الثورة تتتابع وتتبلور وتحدد لنفسها مسار أصبح معه توقع الانتصار أمراً مفروغاً منه عند الأكثر إن لم يكن الجميع ، مؤيدين ومعارضين .

عندئذ - ارتاحت صدور وأقلام عانت طويلا من مخاوف تبين لها فيا بعد أنها ليست أكثر من أوهام .

وتتسع أحياناً حتى تقترب من الجذرية . وإصلاحيتها وجذريتها ، كانتا موصولتين بالخط الجماهيري العام ، في اهتماماته وتطلعاته، ولعل ذلك هو أول عوامل النجاح الذي تيسر لها أن تصيبه .

وفي مجال المقارنة . من حيث سرعة الاستقطاب وسعته ، بين هذه الحركات وغيرها من الحركات الاصلاحية أو الثورية . التي تنطلق من نقطة الانفصال عن الفكر الديني بمسافة تقترب أحياناً وتصل أحياناً أخرى إلى حد التناقض التام والالغاء .. في هذا المجال لا بد من التشديد على خصوصية – رجل الدين – كونه في الأعم الأغلب ، يأخذ دور المؤسس والقائد للحركة الدينية . وهو إذ يقرر أن يتقدم لاحتلال موقعه التأسيسي والقيادي ، يفعل ذلك في جو من الحذر الجماهيري ، من الخروج على المألوف الساكن إلى الجديد المتحرك . ولكونه رجل دين آتياً من المألوف والموروث، حاملاً ملامحه ، متجانساً معه ، مبتدئاً منه . وتحت غطائه ، يكون أكثر قدرة على تعطيل الحذر . فتصبح حركة الجماهير معه ومن حوله ، باتجاه الأمام ، غير محكومة بخوف الإنقطاع . بل يستطيع رجل الدين ، بما يمثل ، تحقيق التواصل مع الماضي ، الذي يتوفق فيه إلى الكثير من الشواهد ، التي لاتبرر فحسب ، بل تمتلك طاقة كبيرة من الدفع والتحريض . وهو بالتالي لايأتي إلى الجماهير من خارجها ، من الكتاب المترجم أو الموضوع ، ولكن بلغة ليست لغتها ، أو من المصطلح الذي يوقظ فيها الشعور بالخوف على الذات. بل يأتيها من الداخل ، من الذات لإعادة تشكيلها وتحقيقها بالتوافق

مع شروط العصر ، مزوداً ، تبعاً لموقعه ونمط علاقاته بالمجتمع ، بخبرة متأتية عن معايشة طويلة للجماهير ، ولليومي من همومها ، ومستويات ومظاهر التعبير عن هذه الهموم . والتي غالباً ما يكون شريكاً فيها لا متفرجاً وحسب .

تجارب عربية وإيرانية

وإذا كانت هذه بعض عوامل النجاح ، بشكل عام وسريع ، فما هي عوامل الإخفاق ؟... باختصار شديد : إن أحد عوامل الإخفاق الرئيسية كان وما يزال يتمثل مرة في عدم التطابق بين ما تتوخاه الجماهير من هذه الحركات وما تحدده لنفسها ، بين مشروع الجماهير ومشروع الحركة . ومرة أخري يتمثل في افتقار الحركة إلى المشروع أساساً . ولعل حركة الاخوان المسلمين تنهض شاهدة في كونها قد انتجت بنيتها الايديولوجية ، ولكنها وقفت قاصرة دون بلورة مشروعها السياسي المقبول والقابل للتنفيذ ولم تكن في أوج امتدادها مقبولة كحركة سياسية . على أنه لا بد أن يسجل لها استقلاليتها الكاملة في فترة الصعود . ومراسها النضالي، وخصوصية تعاطيها مع الاحتلال الصهيوني لفلسطين في الخمسينات. في حين أن تجربة حزب التحرير ما تزال تراوح ، لأن مشروعها السياسي ما يزال غير قادر على النزول من عليائه إلى أرض الواقع، لأنه في الأساس لم يمتلك شروط التعاطي مع هذا الواقع ، ولا يبدو

حتى الآن أنه قد توفرت له إرادة التعاطي نتيجة الخلل المنهجي في التحليل .

وإذا كانت الحركة الشعبية في إيران . بقيادة رجال الدين الآن ، تسترعي الانتباه والاهتمام ، فإنها بقدر ما تحمل من علامات التمايز بالنظر إلى تاريخها وظروفها العامة والخاصة . تبعث على الخوف من أن تفلت هذه الحركة الناشطة من أيدي قياداتها الدينية. والتي لا تبدو حتى الآن أنها قد جهزت مشروعها واطرها التنظيمية بشكل يتطابق مع سعة الحركة وعمقها ، والآمال المعلقة عليها . واحتمالاتها، التي لا جدال في أنها إيجابية حتى الآن . وستبقى كذلك لفترة طويلة من الزمن . مما يعني أن الحركة قد تصل ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى الخلاص مما لا تريده ، والقضاء عليه . ولكن يبقى السؤال : هل تعرف الحركة ما تريده ؟ وتسعى للوصول إليه ؟... ليس على مستوى التمني . أو العام . بل على مستوى التفاصيل والتعامل مع الملموس في مرحلة امتلاك الزمام ، الذي ربما كان الإحتفاظ به أصعب من امتلاكه . والذي يخشى عليه أن يفلت ويذهب في اتجاهات أكثر سوءاً مما هو راهن . إن لم تتم الاستفادة من تجربة الخمسينات . تجربة الدكتور مصدق وآية الله الكاشاني ونواب صفوي . وما اعترى هذه التجربة من سلبيات خنقتها . رغم ما كان وراءها من شعور ديني جاد ، عميق وشامل . وباتجاه تحرري صلب .. مما يعزز اليقين بأن العفوية النضالية قد تشعل ثورة ولكنها لا تنضج تجربة ، بل تعود لتلتهمها فيما تلتهم . ولعل

أقرب شاهد على ذلك هو ما جرى خلال سنوات الحرب اللبنانية. عندما تيسر لحركة سياسية ، بقيادة دينية ، أن تطل على الساحة بطروحات وطنية واجتماعية . لم تعوزها الجذرية لغة وتحليلاً وشعاراً . فواتاها من جراء هذا . ذلك الاتساع الجماهيري ، الذي ، إضافة إلى قدراتها الذاتية على الإستقطاب أسهمت فيه عوامل أخرى . تتصل بوضعية الشرائح الاجتماعية التي خاطبتها الحركة . فالتفت حولها كتعويض تاريخي عن التيه السياسي الذي عانته . كما تتصل بأزمة الحركة الوطنية اللبنانية في استقطابها العام... ثم لم يلبث هذا الاتساع أن انحسر . عندما فوجئت جماهير الحركة بأنها انتقلت من وعي الظلم والتيه والشعور بهما كأزمة ، تدفع على البحث للخروج وتحقيق الذات ، إلى حالة من توهم الذات ، أو السعي لتلمسها في خط متعرج ، فلم تصل ، بل انكفأت إلى أزمتها ثانية بإشكالات أكثر تعقيداً .

وإذا كانت الحركة الوهابية ، قد انتهت بها أزمتها تاريخياً إلى أن تصب في خيمة عربية ، ضاربة أوتادها في النفط ، لتكون أبرز شاهد على الاصطدام بالباب المغلق . بفعل عدم التطابق فان حركة جمعية العلماء في الجزائر بقيادة عبد الحميد بن باديس . قد تجنبت الوقوع في هذا المعضل . عندما واجهت واقعها ومهماتها بوعي أفضل . واستطاعت أن تحدد أهدافها بدقة ووضوح أكثر ، فواجهت مشروع الفرنسة ، كتمهيد للإلحاق ، باهتمامها الواسع

بنشر اللغة العربية والقيم الاسلامية ، من قناعة أنها ؛جمليا تتجه وتوجه إلى رفض الاستعمار بأشكاله وقيمه كافة ، فاستطاعت بذلك أن تنجز حالة على مستوى الخاصة وعلى مستوى الجماهير ، كانت الرحم الذي نمت فيه البذور الأولى للثورة الجزائرية .وأعطتها الزخم اللازم لتحقيق الانتصار .

وفي نفس الفترة ، كان عز الدين القسام يضع يده . بدون ضجيج ، على المفاصل الرئيسية في الواقع العربي والفلسطيني ، عندما انطلق من رؤية واضحة للعلاقة بين الاستعمار والصهيونية . ولاحظ أن مشروعيها على الأرض العربية في فلسطين ، أولا ، مفروض بالعنف ، فاختار العنف في الرد عليه مشروعاً للخلاص منه ، على قاعدة من الرؤية التي يلتقي فيها الاسلامي والعربي في تناغم نضالي كامل .. ولم يكن عبد الحميد بن باديس وعز الدين القسام ، متواضعين . بقدر ما كانا مسلمين عربيين . علميين وموضوعيين ، عندما لم يعترها وهم السلطة والحكم .

الاندراج في حركة التحرر

في هذه الفترة أيضاً ، وما قبلها ، كان رجال الدين الشيعة في جبل عامل ، يأخذون دورهم الفاعل في مواجهة الإتحاديين في عملية التتريك ، وفي مواجهة مشروعات الإنتداب الفرنسي في المزيد من التجزئة الطائفية وتكريس الإنغلاق القطري وتفتيت الموقف والإنتماء القومي . وقدكانوا في كل ذلك ، مسلمين عرباً،

وموضوعيين . وكذلك كانوا عندما استراحوا في فترة الاستقلال . وانصرفوا إلى اهتماماتهم الفكرية وإنتاجهم العلمي وعلاقاتهم الجماهيرية ، دون أن يغفلوا بين الحين والآخر . عن مناهضة القوى، التي تربعت على بساط الإستقلال لتنحرف به في الإتجاه الذي أراده الإستعمار ورسمه أساساً .

وإذا كان مصدر قوة في هذه الحركات ، أنها واجهت الاستعمار المباشر . الذي تسهل معه المواجهة ، لأنه يشكل تحدياً عيانياً ، ولأنه في سعيه لتثبيت مواقعه وتنفيذ مشروعاته ، كان لا بد له من تأسيس حالة من القبول به . قسراً أو طوعاً ، عبر اختراقه لسياج القيم الاسلامية والعربية ، التي تحصن المجتمع عن الوقوع في قبضته ، مما جعل دور رجال الدين . مطلوباً وفاعلاً ... إذا كان كل ذلك مصدر قوة فان غياب المشروع الخاص ، أو عدم الرغبة فيه ، في هذه الحال ، شكل شرطاً أولياً للتطابق مع وعي الجماهير العربية والإسلامية لمسألتها ، ورؤيتها لواقعها ومستقبلها .

إن المرور — ولو استعراضاً — بهذه الشواهد . يصبح أكثر وجاهة وإلحاحاً في حالتنا . في لبنان . ونحن طالعون . بل ما نزال، في سنوات الحرب ، التي تحول الدين فيها ، إلى متكأ تحريضي ودعاوي في اتجاهين متضادين :.. أحدهما يحمل مشروعاً سياسياً . تمتد جذوره ومكوناته إلى فترة تاريخية مضت . وإن يكن الآن قد اكتفى ظاهراً . بدور الحاضن الروحي والايديولوجي للقوى التي تولت تقديم المشروع ، وقاتلت وتقاتل من أجل تنفيذه والسير به

إلى مداه الإنتحاري (جماعة الكتـلـيك — « الجبهة اللبنانية ») .

والإتجاه الآخر ، الإسلامي على تداخل فيه وتفاوت ، مع الإستثناء المسيحي العريض نسبياً ، لم يكن له في الماضي أو الحاضر، مشروعه الخاص . وإن كان له دوره الخاص والمميز في أغلب الأحيان . من ضمن مسار حركة التحرر العربي ، على إختلاف في مدى القرب منها والإنسجام معها بين فترة وأخرى .

وإذا كانت حركة المحرومين (١) وبمقتضى الهاجس السياسي. قد حاولت أن تخترق هذا السياق التاريخي شبه العام ، فقد عادت ، تحت وطأة الأزمات التي أفرزتها المرحلة ، لتذعن له ، ويترسخ في ضمير قيادتها يقين بأنه من المحتوم على كل القوى القومية ، أن تنشغل بمشروع واحد ، برؤية واحدة ، باتجاه التحرير والوحدة والعدالة ، وأن التنوع فيها ، في خصوصية منطلقاتها ، إن كان يسمح بالتمايز بينها ، في مستوى بناها التنظيمية وأساليب نضالها ، فهو بالقطع لا يسمح بالتمايز الكامل في مشروعاتها واستراتيجيتها.

ضرورة الفرز والتمييز

إذا كانت تلك إشكالية العمل الإسلامي على مستوى الحركات فما هي على مستوى الأفراد ؟ لقد حصل الوقوع السهل في خطأ اعتبار المؤسسة الدينية — إسلامية ومسيحية — جملة وتفصيلا — استثناء من قوانين الصراع التي تحكم المؤسسات الأخرى ، وقد تسبب هذا الخطأ في خطأ آخر . هو تشديد الاتهام للمؤسسة بأنها

— سلفاً — في الموقع المعاكس لحركة التقدم (٢)وهذا الخطأ تسبب بدوره — عربياً في الأقل — مع الإنقطاع شبه الكامل عن التراث ، أو النظر اليه بعين أجنبية في كثير من الحالات ، في نفي هذا التراث ، وبالتالي فقدان الحد المطلوب والضروري من التجانس قيماً ومعرفة ، مع ساحة التغيير وأداته في المجتمع العربي .

هنا لابد من التشديد في المقابل ، على أن المؤسسة الدينية ، في مستوى العلاقات وأنماط السلوك داخلها ، وفي مستوى التنوع الفكري الذي يطبعها ، حالها كحال أي مؤسسة لها موقعها في البنيان الإجتماعي . وعلاقتها بالواقع ، تأثيرها فيه وتأثرها به ، تعمل داخلها قوانين الصراع ، ويمكن تمييز اتجاهين بشكل جدي — ربما تراوحت بينهما اتجاهات وسطية ... إتجاه القبول والسكون واتجاه النقد والحركة .

من هنا يسقط مبرر الدهشة التي تواجه بها حركة التحرر العربي ما تعتبره (طلعات أو إطلالات) دينية على المسألة الوطنية والإجتماعية ... وإذا كان الإندهاش ، أو حتى الغثيان الإقطاعي أو البورجوازي ، على اختلاف المراحل،مبرراً ، في هذه الحالات، باعتبار أن هولاء قد بذلوا جهداً تاريخياً عزيزاً ومكلفاً،وما يزالون، من أجل التحكم بمسالك وضوابط النشاط الديني ، وقصره على حياكة الغطاء الإيديولوجي لمواقعهم ومصالحهم ، مع كل ما يقتضي ذلك من تشويه وتحريف لتعاليم الدين ، فان مفصل الوهن في دهشة

حركة التحرر العربي .هو النقص في استقرائها التاريخي للإسلام(٢) فكراً وعقيدة ، تاريخاً ومشروعاً وقيادة ، حتى لتبدو وكأنها تحقق ما هو مطلوب للقوى المضادة ، من اعتبار الإسلام هو ذلك الذي تحقق على مستوى السلطة تاريخياً ، الإسلام التبريري . وإذ تراه ساقطاً ، كما هو بالفعل ، ترفض أن ترى غيره ، ترفض أن ترى إسلام الشعب ، الذي أسسته البدايات ، وترجمته في منعطفات حادة ، ومتحولات خصبة ، حركات فكرية وسياسية ، كانت نبرتها الاجتماعية عاليـة ، حد اصطباغها بالدم. وفي فترات مختلفة من تاريخنا . وما يزال وهجها ووقعها في النبض العربي ، جهيراً ، حاراً ، وصافياً .

خطأ في النظرة الوطنية

وإذا ما حاول البعض ، أن يسير بالاستقراء في خط مغاير ، توخياً للشمول وموضوعية الحكم والموقف ، وقدم ثبتاً بالشواهد، رجالا وافكاراً ، دخلنا في جحيم القاعدة والاستثناء . وهكذا يصبح علي بن أبي طالب (ع) وعمر بن الخطاب (رض) وأبو ذر الغفاري شيوعيين ،من هنا تبدأ المشكلة في عمل رجل الدين المسلم... فإذا كان علي وعمر يملكان الحصانة التاريخية ،لأنهما في أساس العقيدة والمساس بهما ، مساس بها ، وخروج منها ، تصبح شيوعيتهما خطوطاً في الرمال ، همساً أقرب إلى التندر في مجالس المثقفين ... ولكن رجل الدين المسلم ، الآن : الآتي إلى سلوكه وموقفه ،من

فهم للاسلام ، ومن معاناة صادقة وشفيفة للواقع ، وهو ليس علياً ولا عمر ، وإذ يشعر بكونه جزءاً من مؤسسة مقصرة في وظيفتها التاريخية ــ الآن ــ وحد الإنحراف أحياناً ، يدخل المعترك بكل شرايينه . حماساً واندفاعاً . وطموحاً إلى التعويض . وتأسيس انطباع آخر ، يدخل في حقل ألغام ، يقاتل المألوف والشائع من كون رجل الدين أمراً آخر ، طقوسيته وتسليمه ومهادنته لما هو قائم فعلا ، هي الأساس . والخروج عليها خروج من الدين وعليه ، وسواء جادلنا في ذلك أم لم نجادل ، فانه هو المغروس في أذهان الجماهير والسائد في تعاملها ... وهي الجماهير ، في أي حال ، جاهزة ، تكويناً ، لأن تنقلب على ذلك وتبدله ، وإن يكن ذلك صعباً فإنه مضمون النتائج ، على المدى الطويل ، إذا ما اتسم العمل من أجله بالهدوء والعقلانية والمرونة أيضاً .

وإذا كنا لا ننتظر من اليمين أن يبدل من نمط تعامله مع ممارسة رجال الدين في المجال الوطني ، لأن ذلك غير وارد أصلاً ، فان المطلوب من الصف الوطني ، أن يبدل ، ليخفف من إشكالات المسألة وصعوباتها ... فمنذ الأربعينات وحتى الآن ، وجد عدد من رجال الدين المسلمين أنفسهم بمجرد أن يطلوا على الساحة ، فهم ملزمون بحمل برامج سياسية محددة ، وبحذافيرها ، وأن يغضوا الطرف عن التناقض في كونهم مسلمين ، وإذا ما كانوا من المرونة ، بحيث يتعاملون مع الفكر الحديث بدون عقد ، فلا بد أن يفهم أن ذلك لا ينقلهم إلى موقع ايديولوجي آخر ، وإذ

يصرون من واقع إيمانهم وفكرهم ، على الاحتفاظ بخصوصياتهم ، يتهمون في وطنيتهم ، ويتعرضون لحملات تشهير ظالمة ؟!!
وبعضهم في غفلة من وعيه لما هو المطلوب ، مأخوذاً بالبريق السياسي المذهبي ، يخضع للإبتزاز ، فيستمرىء الرطانة بالمصطلح اليساري طلباً للبراءة ، يصبح بذلك رفيقاً وينسحب الشيخ من جبته ، ويواجه واقعه كالغراب ، يتسكع في مجالس السياسة وتكايا الثقافة ، هجيناً هشاً يسهل كسره ...

(١) عندما انعقد المؤتمر التأسيسي للحركة . بعد فترة طويلة نسبياً من ظهورها . كان محكوماً بوعي هذه المسألة ، وقد ظهر ذلك في حرص القيادة على إفهام الكادر والقاعدة بأنهم ليسوا اخوان مسلمين شيعة جدد ، مع التأكيد على التوجه القومي للحركة ، مما أدى إلى مغادرة كثيرين لمواقعهم في الحركة . ممن كانوا يدفعون في هذا الاتجاه .

كما يمكن الوقوف طويلا أمام حرص قيادة الحركة على الفصل بينها وبين المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى .

(٢) ليس أدل على ذلك من التمسك – غير المبرر – باستعمال تعبير الاقطاع الديني والتوسع فيه دون مناقشة أو قياس مدلوله على الواقع . حتى تحول هذا المصطلح في لسان واستعمال حركة التحرر العربي إلى « كيس » كمصطلح « العالم الثالث » يجمع الأضداد والنقائض ، لا لسبب إلا طلب الراحة من المراجعة والتحديد العلمي للمفاهيم .

(٣) إنما نخص الإسلام بالذكر هنا ، لموقع الاختصاص . أولا ، وثانياً . لأنه المثال الأكثر اتساعاً ودلالة في الوضع العربي العام . مما يجعله شاهد المواجهة خطأ وصواباً .

البُعد العربي في الهمّ الإيراني

إذا كانت الثورة الإسلامية في إيران قد فاجأت الكثيرين منا، فإن جذورها تضرب عمقاً في التاريخ الوطني للشعب الإيراني. ولعل أبرز مراحلها الحديثة هي مرحلة الأربعينات ثم مرحلة بداية الخمسينات — عهد مصدق — ثم مرحلة أوائل الستينات، هذه المرحلة الثالثة التي انتقل فيها الامام الخميني من إطار المشاركة إلى إطار القيادة الفعلية للثورة، ومنذ عهد مصدق، كان الهم العربي الإسلامي في المركز من رؤية الثورة واهتمامها.

وإذا ما كانت الأسباب العامة والتاريخية لهذه الثورة تندرج في قائمة الأسباب التقليدية لأي ثورة وطنية من فساد الحكم وتبعيته للإستعمار (ثقافياً وسياسياً واقتصادياً)، أضيفت إليه في إيران كتأكيد له في مرحلة الخمسينات بعد مصدق، وكرد على محاولته تأميم النفط، مسألة «الثورة الزراعية» التي انكشف فيما بعد ومن خلال التطبيق، إلى أي حد فاقمت من الظلم الإجتماعي وأسهمت

في مزيد من التدمير لبنية الإقتصاد الإيراني .... إذا ما كانت تلك هي الأسباب العامة ، فإنها مجتمعة كانت تستقطب معارضة إيرانية جادة فعلاً ، ولكنها في كل الأحوال لم تكن ذات طابع أو برنامج صدامي مع النظام ، بل كانت تتوسل الأسلوب الديموقراطي مع التلويح بالعنف بعض الأحيان ، أو الدخول في العنف ثم العودة عنه لأسباب تتصل ببنية الفصائل التي تمارس العنف أو تتصل بخط علاقة هذه الفصائل بالجماهير العريضة . حيث ظلت العزلة عن الجماهير هي الطابع الغالب . في حين كان واضحاً أن إلغاء هذا العمق الجماهيري الهائل يفقد أي فصيل يتصدى للمواجهة شرط الإستمرار والإنتصار .

وعندما تصدت القيادة الدينية للمواجهة ، كان واضحاً من البداية أنها تمتلك الشروط كافة ، الإجتماعية والثقافية والتاريخية ، التي تؤهلها لتسجل تحولاً نوعياً في استقطاب الجماهير الإيرانية .

مما جعلها تطرح العنف الجماهيري أسلوباً في المواجهة ، مستنكفة ، من واقع شعورها بالتجانس الكامل مع الجماهير ، عن النضال بالنيابة عنها . وتبين فيما بعد إلى أي حد كانت تملك القرار والقدرة على تنفيذه .

زمنياً ، كان ذلك في أوائل الستينات ، فما هو الجديد الذي حصل فجعل القيادة الدينية تقطع نهائياً مع النظام وتعتبر أنه قد وصل إلى نقطة اللاعودة في سيره في الخط المعاكس والمعادي للشعب الإيراني قيماً وتطلعات ومصالح ؟ تسجل هذه الفترة تبدلاً نوعياً

حصل في العلاقة بين نظام الشاه وإسرائيل ، ولعلنا هنا بالذات نلتقط السبب .

لقد اعترفت حكومة الشاه بإسرائيل عملياً عام ١٣٧٠ هجرية ، أبتدأت تمهد السبل للإعتراف الرسمي العلني وتبادل السفراء ، ثم أتت حكومة مصدق ١٣٧٢ هـ فأضافت جهودها إلى جهود آية الله كاشاني ، فتوقفت العلاقات مع العدو الصهيوني . ولكن منظمة – سيا – الأميركية ، كما هو معروف ، لم تلبث أن أسقطت حكومة مصدق فعاد الشاه إلى علاقاته الطيبة مع إسرائيل وفتح أمامها أبواب إيران عام ١٣٧٤ هـ. وفي عام ١٣٨١ أعلنت حكومة الشاه اعترافها الرسمي بإسرائيل وتوسع النظام في بناء العلاقات وأفسح في المجال للتغلغل الصهيوني في المؤسسات الإيرانية العسكرية والثقافية والإقتصادية ... عندها شهد العالم الإسلامي ردوداً غاضبة على هذه الخطوة الخيانية . فسحب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر سفيره من طهران وطرد سفير الشاه من القاهرة .. وكتب المرحوم الإمام شلتوت شيخ الأزهر الشريف رسالته إلى شاه إيران يدعوه فيها إلى العودة عن خطوته المضرة بالمصلحة الإسلامية .

وكان رد الإمام الخميني بياناً تاريخياً أصدره في جمادى الثانية عام ١٣٨١ قال فيه : « ... وإني وحسب واجبي الشرعي أحذر الشعب الإيراني والمسلمين في العالم من الخطر المحدق بالقرآن الكريم والإسلام ، إن استقلال البلاد واقتصادها في قبضة الصهاينة ، وسوف لن تمضي فترة حتى يسيطروا على كل اقتصاد البلاد بتأييد

من عملائهم مستغلين صمت المسلمين القاتل ، ويسلبوا الشعب الإيراني المسلم في المجالات كافة ، إن الشعوب المسلمة لن تسكت حتى يتم القضاء على هذه الأخطار ، وإذا سكت أي شخص أمام هذه المخاطر سيكون مسؤولاً ، أمام الله القهار ، ومحكوماً عليه بالسقوط في هذه الدنيا ...».

يقول مؤلفو كتاب « موقف الإمام الخميني تجاه اسرائيل » :
« وقد أدرك سماحة الإمام الخميني خطورة الموقف بعمق فرفع راية الجهاد وبدأ يخوض كفاحاً دؤوباً ضد الإمبريالية والصهيونية في إيران عام ١٣٨٢ هجرية ففضح علاقات الشاه الخيانية بالمحتلين الصهاينة ، ونبه الشعب الإيراني إلى خطر الصهيونية المحدق به ، وخطر عملائها ، وألهب الشعور الوطني والديني لدى الجماهير الإيرانية المسلمة » .

يومها كتبت جريدة بكتيكا الأفغانية تقول : « ... ولما شاهد الإمام الخميني ، النفوذ الصهيوني الإسرائيلي وسيطرة الإستعمار الشرقي والغربي ، وخصوصاً الإمبريالية ، قام مجاهداً معارضاً للعناصر الفاسدة ، فكان القائد الحقيقي والمجاهد لا في سبيل الزعامة والأهواء ، بل في مواجهة أقدم وألد أعداء الإسلام ».

يلاحظ إذن ، أن معيار القيادة الصالحة ومعيار الجهاد الحق هو العداء للصهيونية ، على قاعدة أن الصهيونية هي ألد أعداء الإسلام.. وهكذا استطاع الإمام الخميني ، أن يصل مع الجماهير الإيرانية إلى موقف واضح من العدو الصهيوني بعد أن التقت توجيهاته

بمشاعرهم في اعتبار الصهيونية معادية للإنسانية في جوهرها .

كان رد الشاه على هذا التطور أن عمدت أجهزة السافاك إلى ارتكاب جريمتها البشعة بالهجوم على المدرسة « الفيضية في قم في ٢٥ شوال ١٣٨٢ » ، بمساندة وحدات من الجيش ، فسقط العشرات من رجال الدين برصاصهم وحرابهم .

زادت هذه الجريمة البشعة من صلابة الإمام الخميني فأصدر في شهر محرم ١٣٨٣ هـ نداء إلى العلماء والأساتذة والطلاب وسائر الفئات دعاهم فيه إلى تعبئة طاقاتهم لخوض كفاح دؤوب ضد عملاء الإمبريالية والصهيونية في جميع أنحاء إيران والقيام بشجب واستنكار علاقات الشاه مع إسرائيل وتعاونه معها .. ومساعدة الشعب الفلسطيني وفضح جرائم الصهيونية .

ووصلت قناعة الخميني بالتغلغل الصهيوني في قرار الشاه حد اعتباره ما حصل في المدرسة الفيضية بتوجيه من إسرائيل وإرضاء لها .. يقول الامام في خطاب له في أربعين شهداء الفيضية : « ... ولست أدري ترى هل إن جميع هذه الجرائم من أجل نفط مدينة « قم » لكي تذهب ضحيته الجامعة العلمية ؟ أم أنها اقترفت من أجل إرضاء إسرائيل ؟ حيث وجدونا عقبة في طريق تحالفهم معها ضد الدول الإسلامية » ويقول في نفس الخطاب : « إني أعلن بكل صراحة لرؤساء الدول الإسلامية والعربية والعالم أجمع أن علماء الإسلام وشعب إيران المؤمن والجيش الإيراني يرتبطون بوشائج الأخوة الحقة مع الشعوب العربية والدول الإسلامية

المتحررة ، ليشاركونهم همومهم في السراء والضراء ويعلنون استنكارهم وشجبهم لتحالف السلطة الملكية مع إسرائيل عدوة الإسلام وإيران » .

لعل هذا الكلام يعبر عن أقصى درجات الإيمان بوحدة المصير العربي الإيراني ، الإسلامي في الأساس . إن تعاطي الشعب الإيراني في هذا الوقت مع مضمون هذا الكلام ، يبين إلى حد كبير ، أن همومنا العربية ، كانت أساساً في القلب والعقل الإيراني ، سواء في مستوى القيادة التي كان الخميني وما يزال رمزها وشاهدها ، أم في مستوى الجماهير التي دخلت في هذه الفترة مرحلة كفاحها الشامل وبادرت إلى الجهاد ، ولأول مرة رفعت هذه الجماهير لافتات في مظاهراتها في شوارع العاصمة الإيرانية وهي تحمل شعارات معادية للصهيونية .

وثانية أدرك الشاه خطورة الموقف . فرد باعتقال الإمام الخميني ليل ١٢ محرم ١٣٨٣ هجرية .

وعندما شاع نبأ الإعتقال خرجت جماهير إيران غاضبة .مطالبة بحرية القائد مؤمنة على شعاراته ، وحصدت قوات الشاه جموع المتظاهرين ، فسقط ما لايقل عن (١٥) ألفاً بين شهيد وجريح. وكانت فلسطين هم العرب الأول ، تطل من بين الجراح . مزهوة الحزن واعدة الدم .

وجهد الشاه وأجهزته لربط الانتفاضة الإيرانية باتجاهات خارجية ، وكان عبد الناصر يومها ، رائد العرب وفزاعة الخونة

منهم ومن حولهم . فحاولوا إلصاق تهمة تحريك الانتفاضة به .

نشرت أجهزة إعلام الشاه يومها كذبة ملفقة عن شخص مختلق يدعى « عبد القيس جوجو » اعتقل ، حسبما ادعت ، في مطار طهران قادماً من لبنان ، ويحمل معه مبلغ (١٢٠) الف دولار وادعت أنه صرح لدى استجوابه بأنه تعهد بإيصال المبلغ المرسل من قبل جمال عبد الناصر ، لشخصيات خاصة في إيران ...».

وأجبر الشاه على التنازل عن جبروته الذي كان يمنعه من التعرض لمعارضيه بالتحديد في خطاباته ، أجبر على القول في خطاب له بعد المجزرة « والذي يجب أن يعلم به الجميع بصفتهم من أبناء الشعب الإيراني ... فما هو رأيكم أولا بإيراني يستلم النقود من أجنبي ؟ ويعمل ضد مصالح مجتمعه ، وثانياً ما قولكم بشيعي يستلم النقود من شخص مسلم غير شيعي » ؟.

يقصد بذلك الخميني وجمال عبد الناصر .

وسارع الخميني إلى الرد فقال : « إن الأيادي القذرة التي توجد الخلاف ما بين الشيعة والسنّة وتغذيه ، لا شيعية هي ولا سنية ، وإنما هي أياد استعمارية أياد أجنبية ، تريد تأخير استقلال البلاد الإسلامية ، من أجل أغراضها الخاصة ، من أجل استمرار نهب الثروات ، والخيرات وتحويلها إلى أسواقها السوداء » .

هذا في تاريخ الثورة .

والشواهد في تاريخها كثيرة لمن يريد أن يستطرد .

أما في حاضرها ، فإن قراراتها ومواقفها واضحة ، لاغموض ولا لبس.وأما في سلوك جماهيرها ... فلم تقصر أجهزة الإعلام الدولية ، رغم عدائها في نقل الصور المشرقة، عن الموقف الشعبي الإيراني من قضية العرب الأولى ، والذي له كل يوم تعبير عن صدقه وعمقه .

هكذا إذن : من واقع الإنتماء الإسلامي العميق لدى الشعب الإيراني ، تأخذ الأمة العربية موقعها المتميز في وجدانه ، وتأخذ قضاياها ومشكلاتها صفة الأولوية في اهتماماته .

وفي إيران ، لا يحتاج الواحد منا إلى كبير جهد أو عناء ليكتشف :

١ ــ أن كل ما له صلة بالعرب يحاط بدرجة عالية من القدسية.

٢ ــ أن الإيراني في المستويات كافة لا يخفي حرجه وضيقه من كونه لا يتقن العربية ، أداة إيصال الإسلام .

وفي الأيام الأولى التي مرت على انتصار الثورة الإسلامية في إيران ، كان الإيرانيون قيادة وقاعدة ، حريصين على التأكيد بأن انتصارهم ليس إلا بداية على طريق الجهاد ، الشاق والطويل ، من أجل تحرير وإعزاز الشعوب الإسلامية كافة . ومن هنا بالذات كانوا وما يزالون يرون أن ما حققوه حتى الآن لن يصبح ناجزاً ولن يكتمل ما لم يتم تحرير فلسطين أولاً وما تبقى من الأرض والشعوب الإسلامية المغتصبة أو المضطهدة ، ثانياً أو معاً .

إن الموقف من العرب وقضاياهم ، إن لم يكن بهذا المستوى من الصدق والجدية والإستعداد للعطاء ، يبقى كلاماً ، ليس بوسع لفظيته « القومية » أن تغطيه مهما تكن حادة وعالية النبرة ،لقد تعلمت جماهيرنا العربية من خلال بعض « التجارب » ؟ الواعية لدورها .. أن ترى في الحماس القومي المفرط ، مقدمة للتحلل من الإلتزامات القومية ، بعد أن يكون هذا الحماس قد دفع بالهموم القومية إلى مصيدة معدة سلفاً ، من التعقيدات والأزمات ، التي تستدعي تبعاً ، حالة ظاهرة من التراجع ، تبقى مؤقتة وإن طالت، وتشكل بدورها فرصة ، محدودة زمناً وفعلاً ، للإيغال والتمادي في القطرية تحت المظلة القومية . وعندما يؤكد الشعب الإيراني ، قاعدة وقيادة ، أن انتصاره . قد أنهى مدة (٢٥٠٠) عام من الجور والطغيان . مبتدئاً في الحساب من عهد قورش مؤسس الدولة المجوسية ، مروراً بالعهدين الصفوي والقاجاري ، انتهاءاً بالعهد البهلوي ... يسجل بذلك شهادة على نفسه بالخروج الطوعي الواعي من تاريخ « فارس » ويؤكد أن شخصيته الحضارية والثقافية ، إنما ابتدأت مع الإسلام ونمت من خلاله .. وبالتالي فإنه يحدد بذلك انتماءه بعيداً عن العنصر ويصبح وعيه القومي وعياً بالإسلام ، داخلاً فيه غير متمايز عنه . في حال كهذه، هل يمكن لنا أن نطلب من شعب يعطي هذه الصفة لقوميته ، أن يأخذ في اعتباره ، في تعامله السياسي والثقافي ، « القومية العربية » بمفهومها المألوف لدى الكثير من الفصائل القومية العربية ، خاصة وان هذا المفهوم ينتمي

في الأصل إلى جملة المفاهيم التي أنتجتها الحركة القومية الأوروبية، مما يجعله – موضوعياً – قاصراً عن استيعاب خصوصية المسألة القومية على المستوى العربي ، في حين أن هذه الخصوصية لايجوز التهاون بها ، بل يجب التأكيد على كونها ، كما هي في الواقع ، المميز الرئيسي ، وهي في أي حال ، وبتركيز شديد تكمن في كون الوعي القومي العربي ، وعي الذات العربية ، لم يتم خارج الإسلام ، بل تم على قاعدته عقيدة وفكراً وتاريخاً ..

وإذا ما كنا عند قناعتنا الراسخة ، بأن حمل الهم العربي في فلسطين ، لا يتأتى لإيران الثورة أن تفي به ، إلا عبر عمليات معقدة وعديدة من ضمنها التغيير في نمط تعاطيها مع الأوضاع الاسلامية والعربية التي هي ، في أكثرها ، في وضعها الراهن تعيق عملية النهوض بعبء التحرير ... يبقى السؤال قائماً عن كيفية تعاطي إيران الثورة مع هذه الأوضاع باتجاه فلسطين ومجمل الهموم العربية المتجانسة أساساً وأصلاً مع الهموم الإيرانية .

قد يسارع البعض إلى وضع برنامج ، أو روزنامة ثورية لإيران تتوزع جغرافياً وزمنياً على مساحات عدة من الأنظمة العربية وَالإسلامية .

ولكن بعض الإخوة في إيران سارعوا منذ البداية إلى التأكيد بأنهم لا يريدون تصدير الثورة إلى الخارج كما رد بعض آخر منهم بالعزم على التصدير وبين إرادة التصدير ونفيها يتأكد لنا إنهم بذلك إنما يعلنون حذرهم من الوقوع فيما وقع فيه غيرهم من النسخ والتقليد الذي يؤدي إلى نوع من العقم الثوري، وهم – ضمناً –

يعتقدون أن الظروف الذاتية والموضوعية لا بد أن تكتمل داخل بلد ما. حتى يحدث فيه التغيير المطلوب ، وتبقى التأثيرات الخارجية محكومة بالقوانين الداخلية لهذا البلد. ومن هنا فإن تأثير الثورة الإيرانية على محيطها العربي والإسلامي يظل مرهوناً بالظروف الداخلية .

وإذا اعتبرنا أن مقتضيات التغيير في عدد من الأقطار العربية والإسلامية موجودة فإنه من المشكوك فيه أن قوى التغيير في هذه الأقطار قد أصبحت جاهزة فعلاً ، وبقدر ما يكون النضج في هذا المجال يكون التغيير منتظراً .

وفي كل الأحوال فان للثورة تأثيرها المباشر وهو أنها تعطي الفرصة لكثير من الأنظمة التي تمارس سياسة اجتماعية أكثر جوراً أو أقل عدلاً لتغير في سياستها ومنهجها ، كما تعطي فرصة للأقطار المرتبطة جزئياً أو كلياً بالسياسة الإستعمارية في المنطقة لتصلب موقفها ، وفي هذه الحال فإن الترجمة الوحيدة للموقف الصلب هو الموقف الجدي والمسؤول في المعركة مع العدو الصهيوني .

إن الإقدام على تغيير كهذا ، حتى من السلطات الحاكمة ، يشكل بداية لتغيير فعلي ، قد يكون بطيئاً وطويل الأمد ، ولكنه سيكون جذرياً دون شك ، لأنه سيفسح في المجال لنمو قوى التغيير نمواً طبيعياً .

ولعل الأثر المباشر والمنظور والمهم الذي أحدثته الثورة هو أنها أعطت زخماً جديداً وقوياً للقضية الفلسطينية وأضافت لرصيد هذه الثورة قوة إن لم تشكل تعويضاً كاملاً عن سقوط الرقم

المصري ساداتياً عن المعادلة ، فلربما كانت إيذاناً بعودة هذا الرقم إلى الحسابات العربية . سواء عن طريق العودة إلى الصواب ،وهذا أمر بعيد ، أو عن طريق التغيير المحتمل في مصر عبد الناصر . الذي كانت ثورته الشقيقة التوأم لثورة مصدق .

وعلى المستوى العالمي .. إذا كانت ثورة إيران ، بحسب ماطرح في قمة « غواديلوب » إنما حصلت بسبب خطأ الحسابات الاميركية، فلا بد أن نتوقع إعادة ترتيب لهذه الحسابات ، نتوقع مداخل جديدة لسياسة الولايات المتحدة إلى المنطقة ، لا بد لها في كل حال، أن تأخذ باعتبارها أن الإسلام هو القاعدة الأولى التي تتحرك عليها شعوب المنطقة وهو سياجها الذي يحميها من السقوط في قبضة الإستعمار .. وإذا كانت قد اعتبرته أمراً مفروغاً منه ، أو دجنته في بعض الأمثلة والنماذج ، فإنها لا بد أن تفكر الآن في إحداث ثغرات جديدة في هذا السياج ... ولعل أهم هذه الثغرات المطلوب إحداثها ، هي فصل الهم الإيراني عن الهم العربي .. وإن كانت الضربة القاضية قد وقعت ، وإن كنا موضوعياً وذاتياً مطمئنين .. فإن ذلك لا يلغي أهمية الحذر وضرورته .

الكرملين ، البرافدا ، إيران ... لا داعي للدهشة

يوماً ، قدر المرحوم كمال جنبلاط أنه « بكير » على الثورة في لبنان . وأن موعدها بعد خمسين سنة في الأقل ... شعرت ، شخصياً ، بأنه « يمنيني » بالحرمان من لذاذات العيش في ظل الثورة، ولكن مزيداً من الدخول في قراءة الكتب . في الكتب ، وعلى الطبيعة ، ما ابتدأت به وما انتهيت إليه . رسخ لدي قناعة بأن اللذاذات المتطلبة للثوري كحاجة عضوية ، بسبب من الاشباع التحريضي .. مرهون الحصول عليها بجريان الفعل الثوري ، عدم اكتماله ، إذ الاكتمال كما هو حاصل عياناً ، يعني تحول الثورة إلى مؤسسة، في القاع منها قوانين العمل والفعل الثوريين ، أما الحلم الثوري ، في شموله ، فمغطى بطبقة من حيثيات ومصالح وعلاقات السلطة ــ الدولة ، التي لها منطقها الخاص ، داخل الثورة وخارجها ، وهو ذلك المنطق الذي يتجانس أحياناً ، داخل الثورة وخارجها حد التطابق .

ذلك يعني ، في أحسن الأحوال ، أن الثورة في مستوى الكل ،
قد أعلنت كفايتها زمناً ومكاناً ورؤية ، وفي بعض الحالات ، بل
في كثير منها ، تكون الردة تعبيراً أدق وصفاً لما يحصل ... وفي
مستوى الفرد ، فرد ما ، قد لا يكون فرداً بالضرورة، لم يفقد
نبضه الثوري . يستعصي على الإنكفاء، أو الارتداد ، يميل للوفاء ،
يصبح الاصرار على التلبس بالثورة ، إرادة وفعلا ، مجلبة قهر ،
ومناخاً لشعور حاد بالاحباط « باسترناك » هنا شاهد عدل
والإنشقاقيون السوفيات لا يصلحون لذلك قطعاً، ولكنهم حالات
يجب النظر إلى ما في الواقع من حيثيات يبررون بها ما لا نبرره
نحن ولا نقبله .

على أي حال ، من الآن وإلى أن نقع في هذا المحذور في لبنان
ويبدو أن موعده ليس قريباً ، أقدر أنه سيبقى في إمكاننا ، بل
يجب أن يبقى في إمكاننا ، أن نضارع الفعل الثوري الجاري ،
أو ما يشبه أن يكون فعلا ثورياً جارياً على أسوأ تقدير ، أن نضارعه،
بما سيؤول حتماً في الموعد البعيد إلى المصادرة عندما نستبدل
استلاباً باستلاب ، ويصبح مفهوم الحرية قهراً أو ضمناً ، متضمناً
لقدر واف من القمع الطوعي أو القسري ، وعندئذ نغلق علينا
حدود الجغرافيا . نمسك بأطراف التاريخ ، نلمها ، نفترش
تاريخنا الخاص في ظل **السلطة — الدولة — الثورة** — بهذا التشديد
مع التشديد على عدم التناسب حجماً وأثراً وقراراً .

تواتيني الآن ، هذه التداعيات والتوقعات والتوجسات ، وأنا

أقرأ موقف الكرملين عبر البرافدا من أحداث إيران[1] ... وأتمنى
أن يكون في أعلامنا الوطني ، وباستمرار حيز واسع ، واسع جداً
للإعتراض ، للدهشة ، أن لا نترك هذه الفضيلة لغيرنا .

وفي حالتنا ، نقع في مقتل ، إذا كنا قد اتخذنا فعلا ، قراراً
محكماً بالتبرير ، ذلك يعني الاختناق ، الغلط ، ولعله تبرير ،
أو غلط أن نعتبر موقفاً كالذي بين أيدينا ، مجرد غلط أو سوء
تقدير ،سوء فهم ،ذلك يعني تبريراً أيضاً، ثم إنه يجافي الواقع تماماً ،
ولعله مدعاة للضحك أن نسلم بأن الاتحاد السوفياتي ، بأجهزته
وتوابعه المنتشرة في هوائنا ومائنا والتي لا يضاهيها سعة انتشار إلا
أجهزة وتوابع المعسكر الآخر ، المعادي له ولنا ، والذي موقفه
أيضاً مع شاه إيران ... أكرر : لعله مدعاة للضحك أن نسلم بأن
الاتحاد السوفياتي يجهل المردود السيء « للثورة الزراعية » ؟ على
جماهير الفلاحين في إيران ، أو يجهل أن الزعماء الدينيين —والخميني
منهم خاصة — لا يملكون شبراً من الأرض ، فقد خرجوا من المال
إلى الله ، فكيف يمكن أن يكونوا موضوع ضرر بالنسبة « للثورة
الزراعية ؟» وفي مستوى آخر تعلمنا من أدبيات السوفيات وغيرها،
المتحدرة منها ، أن إجراء ما ، كالإصلاح الزراعي ، من سلطة
ما ، كسلطة الشاه في إيران ، بعد عودته على حراب الإمبريالية ،
والقضاء على حركة مصدق الوطنية والإجتماعية...هذا الإجراء من
هذه السلطة في ذلك الظرف ... الموقف منه، قبوله، تأكيدتقدميته
اكتشاف مؤشراته، توقع نتائجه ... الخ، لا بد أن يبقى محكوماً

بطبيعة السلطة التي تقوم به ، ومن الأدبيات السوفياتية تعلمنا أيضاً أن سلطة كسلطة الشاه ، في نفس الوقت الذي تؤكد فيه ، عملياً ، مؤسسياً وإيديولوجياً ، ارتباطها وتبعيتها للإمبريالية ، تسعى لأمرين ، لإلباس نفسها قشرة من الحداثة ، والحداثة في مفهومها هي التغريب ، ولتوسيع هامشها ، شكلا ، على قاعدة التبعية المطلقة ، التي هي الحاكمة وهي الضابط والأساس في بنيتها « شراء الشاه للمفاعلات النووية من فرنسا وألمانيا بعد موقف الكونغرس ، خلاف الشاه السطحي ، مع إدارة كارتر على مسألة حقوق الانسان » .

هل استطاع شاه إيران أن يخدع الكرملين ؟ ولكن هل أصبح الكرملين قابلاً للخديعة إلى هذا الحد ؟!

في الواقع ، نرى ، ومن حقنا أن نرى ، ونحن نحسن الظن بمعلومات الـ« K.G.B »وغيرها، نرى أن وراء هذا الموقف منهجاً في التعاطي مع الحركات الثورية ذات السمات الجذرية في العالم الذي يحلو للبعض أن يسميه العالم الثالث . هذا المنهج متصل بأزمة الإتحاد السوفياتي في خضوعه لأسباب داخلية — بنيوية — وخارجية ، في تعامله مع الآخرين لنفس منطق المعسكر المضاد له وللآخرين ، الحفاظ على موطىء القدم في أي بقعة من العالم ، حتى لو كان ثمن هذا الموطىء رأس حزب شيوعي وطني ، أو حركة ثورية جذرية كالتي في إيران ، لسبب واحد هو كونها جذرية ، مما يعني خروجها من القبضة ... وعصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة ...

وفي حالة إيران ، لا يبدو أن على الشجرة شيئاً لأن هناك اصراراً على الإستقلالية ، على الخصوصية في العلاقة وجرأة على الإدعاء بأن الثورة الإيرانية لكي تنجح في الوصول إلى السلطة وإحداث عمليتها الإنقلابية المطلوبة ، ليست ملزمة بأخذ الرخصة من هنا أو هناك . إنها تقلب المعايير إذن ، ومن هنا هذا الغضب ، والتشبث بذيل العصفور ، الذي رأسه في واشنطن ، ومن هنا أيضاً تزول الدهشة ، ويفقد الإعتراض من قبلنا مبرره، فللدولة السوفياتية مبرراتها ، أولاً وبالذات ، وربما في حال كهذه ، تضيق رقعة الثورة ، تصبح مطابقة للجغرافيا ، وتسجل انسحاباً جزئياً من التاريخ .

ثم — وهذا في الاساس — في إيران ، وفي الاتحاد السوفياتي معاً — إنها ثورة تجرؤ على أن تقول إنها إسلامية . والإسلام الثورة، المشروع السياسي ، الرؤية الشمولية ، الداخل في نسيج الشخصية الإسلامية ، المستعصي على الإلغاء ، الخارج من تنظيرة « لينين» في مسألة تحويل الدين إلى قضية خاصة ... قد طوي حسابه ، من جانب واحد قطعاً وبرؤية أحادية الجانب أيضاً ... ومع ذلك ؛ فها هو يطل برأسه من إيران ، حاملاً معه وعد القرآن : «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض،ونري هامان وفرعون وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون» . ٦ — القصص

ونبوءة محمد (ص) : « ليأتين يوم يسير فيه السائر من

صنعاء إلى حضرموت ولا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » .

إنه الاسلام – هكذا – إخلال بالمعادلة وحسب ، إنه حفر في العمق ، كوة جديدة تطل منها شعوب العالم على مسار جديد للمراجعات ، قد يطال ، ولا بد أن يطال ، مسلمات فكرية ، وإنجازات كبيرة جداً ، صعوداً إلى الإيديولوجيا ونزولا إلى البنية التحتية بكل علاماتها وملامحها وقوانين علاقاتها .

وإذا كان كل ذلك يشكل تبريراً كافياً ؟ فمن حقنا أن نناقشه ، بهذه الحرية المفتوحة على كل شيء ، دون أن نشعر بالاثم ، أو الإعتداء على حق الشعوب في التقدم وتقرير المصير أو تتسبب في إحداث شرخ في العلاقات العربية السوفياتية ، في زمن ، كامب ديفيد ، وحاجة امتنا إلى حليفهـــا إياه ، في مواجهة أعدائها . ولكننا لا بد أن نتذكر باستمرار أن شاه إيران هو أحد مهندسي رحلة السادات الخيانية إلى القدس ، وأن إيران الشاه هي عمق إسرائيل في المنطقة ، وإذا كان من حق السوفيات إعلان الموقف وتحويله إلى ممارسة فمن حقنا أن نجاهر بالاعتراض .

عندما أحرج الإمام الخميني ، فخرج من منفاه الأقرب إلى قلبه بعد إيران، غضبنا، ولكن الإمام ، بحسه القيادي المسؤول والدقيق ، والذي نادراً ما يخطىء التقط المسألة ... « براغماتيا » في الأقل ، الموقف مبرر ، ولعله امتحان للإمام ولعل حلم الشاه في أن تتحول النقمة الشعبية الإيرانية في اتجاه بلد كالعراق ، يتحقق إذا كانت ردة الفعل موسومة بالاستعجال ، وعدم قياس التناقضات.

وطالما أن عدو الشعب الإيراني هو الشاه وسلطته ، إذن فكل الجهود باتجاهه وضده .. وأفلت الإمام ومعه الشعب الإيراني من الشرك المنصوب ، وكانت ارادة الإمام بعدم الوقوف عند الحادثة مخيبة للمصطادين في الماء العكر .

أما عن الموقف الصيني ، الذي يبدو أنه منذ زمن يفصل نفسه على الموقف الاميركي ، كما يفصل « القدم على الحذاء » فهو يندرج ضمن ما أصبح معروفاً من أن الصين قد تحولت إلى شركة مقاولات لتغطية وتبرير الثورات المضادة في العالم ، ولم تعد ترى لثوريتها مجرى إلا في الإتجاه المعاكس للرياح السوفياتية .. الآن كيف تتدبر الصين موقفها بعد اعلان الموقف السوفياتي ، هل يا ترى من نصوص باقية !

أخيراً عن الموقف السوفياتي ، كنا حريصين ، أن لا يعان موقفاً من أحداث إيران ، أي موقف ، لأن الموقف الإيجابي من الثورة يسبب لها الكثير من الحرج ، والسلبي يحرج السوفيات ؟ ولذا كان أجدى لنا ولهم التوقف ، وهم إذ أعلنوا ، فقد أزاحوا عن صدرنا كابوساً ، سحبوا ورقة من يد العدو ، وخيبوا أمل المشكك ، ورفعوا من قدرتنا على المراهنة على تصاعد الموقف في إيران واستقطابه،حتى على مستوى المؤسسة العسكرية لا بد أن يكون الموقف السوفياتي دافعاً أكيداً وحثيثاً لها في الاتجاه المطلوب.

* * *

لقد فرحنا كثيراً بانتصار الشعب الفيتنامي والكمبودي ، وسقوط العميلين ثيو ولون نول وكنا في مساجدنا في ليالي رمضان، وليالي عاشوراء ، في مآتم أهلنا المؤمنين، في مواعظنا نسرب إلى أهلنا ، الى قلوبهم وعقولهم ، مآثر الشعب الفيتنامي ، ونعلم أطفالنا ثورة هذا الشعب ... فرحنا كثيراً ، ولسوف يفرح معنا الشعب الفيتنامي بانتصارات أكيدة نحققها ، هنا أو هناك ، ضد الإستعمار بأشكاله كافة ، ولسوف يأتي اليوم ، الذي يتلقف فيه الثوريون دروس الثورة الايرانية ، بل هو قد ابتدأ فعلا .

---

(١) كتب هذا المقال ونشر في جريدة السفير في خريف ١٩٧٨ - بعد أن أعلن الكرملين موقفه الرسمي من الثورة الإيرانية ... واعتبر الشاه ونظامه عاملا أساسياً في التوازن السياسي والعسكري في المنطقة... وكتبت البرافدا تحليلاً للثورة كان أشد ما فيه غرابة وبؤساً تفسيرها لموقف القيادة الدينية بكونها قد «تضررت من الثورة الزراعية» لأنها كانت تملك مساحات واسعة من الأراضي الخصبة .

دين الوحدة

رغم ما يتميز به شهر رمضان من كونه شهر الذكريات .

ذكريات مرحلة التأسيس في الثورة الإسلامية، على المستويين : الفكري والعملي . من نزول القرآن الكريم إلى انتصارات المسلمين ومن كون العبادة المفروضة فيه ، بالمشقات التي تقتضيها ، تتحول إلى عامل يسهم في صقل شعور الصائم وإعادته الى حالة من الشفافية والصلابة في الإرادة التي يمكن أن تكون قد لانت على مر العام، رغم ذلك كله فان هذا الشهر لا يمكن الخروج به عن موقعه في الإسلام ، عقيدة وفكراً ، كما لا يمكن الخروج بعبادة الصوم عن سياقها العام في العبادات الاسلامية ، ذات التنوع والتمايز شكلا والوحدة مضموناً .

ومن هنا فإن الحديث عن هذا الشهر الكريم ، هو في الأساس حديث عن العبادة الإسلامية ، وبالتحديد عن الجانب الوظيفي في هذه العبادة ، دون انتقاص من أهمية الجانب العبادي المحض،

لأنه في النهاية الأساس والقاعدة .

والحديث عن الجانب الوظيفي في العبادة الإسلامية لا يمكن أن يوفيها حقها إلا إذا كان موصولا بالأرضية العقيدية التي تنبع منها العبادة وتتصل بها لتشكل منظومة الرؤية الإسلامية للكيان الإجتماعي والعلاقات الاجتماعية، التي أسسها الإسلام ضمن منظوره الخاص، وأراد لها بالتالي أن تحكم حركة التاريخ والمجتمع الإسلاميين، وفي الحدود التي تحافظ على خصوصيتها وتمايزها . وإذا ما كان الإسلام من حيث العقيدة هو دين التوحيد ، فانه يأبى لهذه العقيدة أن تنزوي في وجدان الفرد أو الجماعة خارج حركة التاريخ، ومن هنا تمتد إلى التاريخ ليصبح الإسلام معها دين الوحدة أيضاً « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »(٩٢ــالأنبياء) . وإذ تؤكد الآية الكريمة وحدة الأمة تضعها في الجزء الثاني من الآية في إطارها العقيدي .

والأهمية في هذا هي أن الإسلام يربط الوحدة بالعقيدة ولا يربطها بالمصلحة لأن المصلحة في الوحدة أولا وبالذات ، وبذلك تصبح الوحدة واجباً عقيدياً، بصرف النظر عن كونها ممكناً سياسياً . والذين يريدون أن يصنعوا تاريخهم يبدأون من الواجب ولا ينتظرون الممكن لأن الممكن هو ما تصنعه أنت لا ما يوفره لك عدوك طوعاً ، لأنه لن يوفر لك شيئاً بمحض إرادته .

وإذ ترتبط الوحدة بالعقيدة ، يضيق فيها هامش الخيار ، تمسي التزاماً يحكم كل الخيارات ... ومن هنا بالذات لا تعود

الوحدة قضية فئة أو طبقة أو نخبة .. بل تصبح قضية المجموع ، مجموع الأمة ، الذي يفسح في المجال للطليعة كي تمارس دورها الريادي من ضمن الأداة وبالتجانس الكامل معه .

وحتى لا تبقى الوحدة عقيدة معلقة ، يدفعها الإسلام قدماً لتجد تعبيراتها في الممارسات اليومية والسنوية والموسمية .

وبذلك تصبح الوحدة شأناً يومياً .. ويزول الفاصل الذي عرفناه في الثقافات والإيديولوجيات بين النظرية، والممارسة بين العام والخاص ، بين الانتماء الفكري والسلوك اليومي .

على مستوى اليومي بين أيدينا الصلاة .. التي يمكن أن تكون عبادة فردية في أسوأ الحالات ، ومع ذلك ، حتى في حال تأدية الصلاة فرادى فإن تعبيرات الوحدة وأواصرها تبقى متوفرة .. ففاتحة الكتاب ، التي يلزم كل مسلم بقراءتها في الصلاة عندما تصل إلى إظهار التعبد لله تعالى تستخدم ضمير الجمع « إياك نعبد». مع أن المصلي يكون واحداً ، تأكيداً على التوحد مع المصلين الآخرين .. إضافة إلى الوحدة المحفوظة في التوقيت والإتجاه « القبلة » . ويرتفع الدفع باتجاه تأصيل الشعور الوحدوي لدى المسلم بالتأكيد على استحباب صلاة الجماعة وكراهة تركها ، حد التشكيك في عدالة من يتركها لغير عذر . وفي صلاة الجماعة تتجلى تعبيرات الوحدة بأبهى وأدق صورها .. وحدة الإتجاه ، وحدة الإمام ، وحدة الحركة ، وحدة الكلمة ، وتترك الحرية للمأموم ، للقاعدة ، في اختيارات محددة ، لتكرس الديموقراطية داخل

الوحدة وتبقيها مفتوحة أمام التنوع الذي يخصبها .

ويحتاط الإسلام للوحدة في عبادة الصلاة . مفترضاً أن هناك من يخطىء فلا يواظب على صلاة الجماعة أو لا تؤاتيه ظروفه ، فيوجب صلاة الجمعة جماعة .. وصلاة العيدين.. وهنا تبلغ تعبيرات الوحدة ذروتها .. كل المسلمين ، في كل أصقاع الأرض ، في لحظة واحدة ، يؤدون عملا واحداً ، الجانب العبادي فيه ليس منفصلاً عن الجانب الوظيفي ، كل منهما يؤكد الآخر ولا يلغيه ، في سياق عقيدي واحد متماسك .

وننتقل من اليومي إلى الموسمي قبل السنوي .

في الموسمي نجد « فريضة الحج » التي في إطارها العبادي الخالص لله ، تريد للوحدة أيضاً أن تقوم على أصولها الشعبية الديمقراطية فينعقد المؤتمر الوحدوي السنوي انعقاداً إلزامياً على القادرين ، وتتسع حدود القدرة التي هي شرط التكليف بالحج ، حتى تشمل شمولا تمثيلياً للمسلمين في كل أرجاء الدنيا ، وتؤدي الطقوس الموحدة « والإحرام » على وجه الخصوص نوعاً من الاعداد النفسي للحجاج للدخول بعد « الحل » في النقاش المفتوح حول أوضاع البلاد والعباد وتبادل الرأي والخبرة باتجاه توحيدها.. على أساس من الوحدة الشعورية التي تكون قد ترسخت في كنف التاريخ الذي يكسر الجغرافيا لأنه مسكون بالعقيدة وهي مسكونة بالمصلحة التي كلما تطابقت مع العقيدة أعادتها الجغرافيا، إلى ضيقها القطري وحبستها ضمن حدودها . وفي الحج أيضاً يحتاط الاسلام

للوحدة فيأتي العيد يشارك عامة المسلمين الحجاج في عبادتهم في تطلعهم إلى اللقاء والوحدة .

ويأتي شهر رمضان من كل عام ليمتن ما يمكن أن يكون قد تراخى من أسباب الوحدة .. وينأى الإسلام بعبادة الصوم عن أن تكون امتناعاً عن الأكل والشراب ، ويصف الرسول (صلعم) الذين يخرجون من مضمون العبادة إلى شكلها فيقول : « صلاتهم عادة وصومهم جلادة ». ويفترض الإسلام في الصائم سلوكاً اجتماعياً عالياً يصل به إلى حد من الصفاء يمكنه من مراجعة سلوكه ومواقفه بعمق وتأن يرتفع بهما إلى مستوى من النقد الذاتي المثمر ، فلا يبقى النقد الذاتي في هذه الحال بحثاً عن مبررات الخطأ وحسب ، ويجعل للنقد ، نقد الآخرين قواعد وضوابط تنأى عن الأنانية والتجريح والتشفي .

وهكذا تستوي أخلاقية المسلم الصائم ، تعود إلى أصالتها ولا تظل في حدود الاخلاقية الفردية الخاصة بل تندمج في المجموع ، تصبح أخلاقية المسلمين حالة من حالات الوحدة الشاملة .

ويمضي الصيام ، يمضي شهر رمضان بالمسلم ، باتجاه التوحد، فتأتي ليالي القدر لتخرج المسلم من ذاتيته ، وتوجهه نحو المجموع بمشاعره وهواجسه ، برغباته وأمنياته . يصبح الخاص عاماً والعام خاصاً .. وينصل النهار بما فيه من عمل وامتناع عن الضروريات، وصولا إلى تصليب الارادة وتحصينها ضد الوقوع في الشهوات ، يتصل النهار ويتوحد بالليل نجوى ودعاء في صفاء ووفاء ، يصل

بشعور الوحدة إلى أبهى تجلياته .

وهنا يحتاط الإسلام للوحدة .. فاذا كانت للصائم فرحتان .. وإذا كان الصوم يسقط عن المريض ومن يخاف الضرر الخ ..فإن هؤلاء يعودون ليشاركوا الصائمين العيد دون انتقاص من حقهم في هذا الفرح الوحدوي ... ولأن للفرحة ثمناً قد لا يحرزه كثيرون في حالة الخلل الاجتماعي ، ووجود الحاكم الجائر غير العادل الذي يسمح ببقاء حالات العوز والحاجة، تأتي زكاة الفطر صباح يوم العيد لترفع القدرة الشرائية عند المعوزين وتؤكد السوية الإسلامية في العيد وتعلن أنها الأصل والأساس .

في الختام .. لو تيسر لنا أن نفتح أبواب بيوت جميع المسلمين في جميع أرجاء الدنيا على مصاريعها في مساء رمضاني ، مع تباشير الليل على صدى الآذان فأي لوحة نجد أمامنا .. نجد جميع المسلمين يمارسون فرحتهم الوحدوي على مائدة واحدة في لحظة واحدة ، في وطن واحد، أمام اله واحد وراء رسول واحد باتجاه مستقبل واحد .. آتين من عقيدة واحدة وتاريخ واحد .

إنه شهر الوحدة .

إنها القاعدة الروحية والعقيدية للوحدة . أسسها الإسلام . أما القاعدة المادية فهي متوفرة على الدوام .

ولكنهم .. فيما مضى ، أعداء الوحدة ، خرجوا من عقيدة الوحدة وروحية الوحدة ، روحية الإسلام ففرضوا التجزئة ... وهاهم اليوم ما يزالون خارجين منها ليكرسوا التجزئة..ولا عودة للوحدة ولا ضمانة لها إلا في العودة إلى الأصالة، إلى عقيدة الوحدة.

تجربة الإمام الخميني وفكره

« أوقفو الاخطبوط الصهيوني ، ابتروا السرطان الإسرائيلي ، انقذوا الشعب الإيراني ، فالصهيونية تمتص دماءه بشراهه وقسوة، وإسرائيل تسمم حياته » .

الإمام الخميني

منذ أوائل الستينات واسم الامام (روح الله الخميني) يطرق سمع الاحرار في العالم،رمزاً وملهماً وقائداً للحركة الإسلامية في إيران ، والتي ضربت مثلاً عالياً في الصلابة الثورية .. فمن هو الامام الخميني ؟

كثيرون ممن يتاح لهم أن يسهموا ، من موقع القيادة ، في صنع متحول من تاريخ شعوبهم ، تأتي فترات حياتهم متواصلة في خط بياني ، يتعرج ويستقيم طبقاً لتعرجات تاريخ تلك الشعوب . وتصبح سيرتهم الخاصة جزءاً من التاريخ العام .

والامام الخميني ، من بداية حياته ، نجد فيه واحداً من طلاب العلوم الدينية ، يميزه شخصياً ذلك الطموح الواسع إلى العلم ، مشفوعاً بما يعتبر ضمانة للتوجه القيادي مستقبلاً ، الورع والتقوى والزهد ، إضافة إلى ما كان يميز فترة شبابه ، في ثلاثينات القرن ، من كونها حافلة بحركات بشرت بعودة القيادة الدينية إلى موقعها في الاسهام في صنع تاريخ المنطقة ، ومواجهة التحديات التي وضعها المستعمر ، مباشرة ، أو بواسطة وكلائه المحليين في وجه الشعوب المستعمرة .. بعد ثورة العشرين في العراق ، وحركة رجال الدين العامليين ، كانت ثورة القسام في فلسطين ، وحركة عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء في الجزائر موصولة الجذور ، كلها ، بالحركة السنوسية من قبل ، وموقف الميرزا الشيرازي من قضية التبغ وشركات روسيا القيصرية في إيران .

في الأربعينات ابتدأ الخميني يطل على الأوضاع العامة في إيران ، وشهدت المدرسة الفيضية في مدينة (قم) هذه الاطلالة ، من خلال حلقة تدريس (العرفان) التي اتسعت حتى شملت الآلاف .. وكان يمكن لها أن تمر بسهولة ، لولا أن السلطة أدركت عن يقين ، بأن ترسيخ القيم الاسلامية في نفوس الشعب الإيراني ، من شأنه ، كما هو في تاريخنا ، أن يحصن هذا الشعب ضد الانكفاء والسقوط في أخلاقيات وقيم المستعمر ، مما يكون سبباً لقبول الإستعمار ، ويقلل من إمكانية التصدي له والخلاص منه .ويظهر من حجم الاقبال على حلقة التدريس تلك ، ومن شراسة السلطة

السلطة في محاولة منعه ، أنه لم يكن مجرد تعريف بعموميات الأخلاق الإسلامية ، التي كثيراً ما كانت تستغل بالتشويه والتحريف ، لتكريس الانسحاب والانكسار أمام المستعمر . لقد كان الاقبال على الدرس ، وقوفاً من الآتين اليه ، على أرضية ترى الواقع في تعقيداته ومشاكله ، بمنظور اسلامي ثوري سليم ، فتخاف السلطة من هذه الرؤية ، وتعتبرها مقدمة للتغيير ... ولم يكن الامام الخميني مشغولا باصطناع مريدين دراويش يلتفون حول متصوف ، بل كان يعمل على أن يشكل منهم قاعدة للاحتجاج والتصحيح .

في أوائل الخمسينات ، كان الامام الخميني قريباً من الدكتور مصدق ، وآية الله الكاشاني ، يضع يده ، من خلال المعاشرة والمشاركة في الرأي والموقف ، والمعاينة المباشرة للواقع ، على الشروط الأساسية للقيادة ، لا في مستوى الأبوة الروحية فحسب ، بل في مستوى التصدي للمهمات التاريخية .

وتنتكس المسيرة .. وتعود إلى السلطة ، على حراب المستعمر ، تلك الطغمة التي أخرجتها الحركة الوطنية الإيرانية ، تعود أكثر شراسة ، وأكثر ميلا لتغليف حكمها بقشرة من الحداثة .

وحين تتخذ السلطة قرارها بإحداث ما سمي بالثورة البيضاء ، نرى الامام الخميني يضاعف من حركته ونشاطه لكشف زيف هذه الثورة ، منطلقاً من قناعته بأن السلطة الايرانية المرتبطة أساساً بالإستعمار والتابعة له ، إنما تصدر في كل ممارساتها عن توجيهاته .

ولم يغتر الامام ومن خلفه جماهير الشعب بمحاولة السلطة توسيع

هامشها على قاعدة النفوذ الإستعماري نظراً لتبعيتها المطلقة ، وليس أدل على ذلك ، من موقف السلطة الذي لم تعد تخفيه ، ولم يعد بإمكانها أن تخفيه ، الموقف من العدو الصهيوني ، المخالف للإلتزام الإسلامي ولنصوص الدستور الإيراني معاً ... فموقف الإعتراف بالكيان الصهيوني لم يعد سراً وقد حصل قدر من التبادل الدبلوماسي ، ولم يعد سراً كذلك حضور الصهيونية التخريبي في بنية الإقتصاد الإيراني .

ولعل مما أسهم في الاسراع بإعلان موقف الخميني من هذه المسألة ، إضافة إلى قناعاته ، أن بعض من كانوا حينها (أوائل الستينات) يدعون الرعاية للشأن الإسلامي العام . قد سارعوا إلى إلصاق التهمة ، تهمة الموقف الإيجابي للسلطة الإيرانية من إسرائيل والصهيونية ، بالشعب الإيراني ملتمسين لذلك مبرراً في الخلافات المذهبية ، منطلقين من مذهبيتهم الضيقة ، مما أثار شعور المرارة والخيبة لدى الشعب الإيراني وطلائعه الثورية المؤمنة . في حين كانت قيادة عبد الناصر ، من موقع المسؤولية التاريخية ، ترى المسألة في صورتها الحقيقية ، ويقف عبد الناصر الموقف المتوقع والسليم والمسؤول من القضية ، لتبدأ جماهير إيران تتعامل معه كرمز للتحرر والإستقلال ، لا تؤثر في موقفها حساسيات مذهبية دخيلة ، بل تذوي وتذوب أمام المصير المشترك والعدو المشترك وعلى قاعدة القيم المشتركة .

إن في هذا ما يؤكد مدى الظلم الذي كان يلحق بالشعب

الإيراني من قبل بعض العرب ، عندما كان يؤخذ بجريرة النظام ، ويفسر لماذا بقي عبد الناصر حتى الآن ومعه ياسر عرفات ، رمزين محببين للشعب الإيراني ، ما تزال المظاهرات الوطنية ترفع اسميهما في هتافاتها .

في الفترة التالية من حياة الإمام ، منذ عام ١٩٦٣ إلى ما قبل الإنتفاضة الأخيرة . بلغ الصدام مع السلطة ذروته ، وكان الرد عنيفاً ، فمن الاعتقال ، إلى استعمال المصفحات في قمع الإنتفاضة الشعبية العارمة التي حدثت رداً على الاعتقال ، في ٥ حزيران ١٩٦٣ ، إلى العسف بالطلائع الوطنية المؤمنة التي رباها الامام على قيم الجهاد والفداء ، إلى نفي الامام نفسه ، الذي استمر من منفاه في قيادة المسيرة رغم صعوبة الظروف وضيقها .

في هذه الفترة أيضاً ، تبلورت الخطوط الرئيسية ، التي حكمت مسيرة جهاد الامام الخميني ... العداء للاستعمار دون هوادة ، واعتبار الصهيونية ربيبته وجزءاً منه ، وبالتالي فان خطرها لن يقتصر على الأرض المغتصبة في فلسطين ، بل هو مرشح للامتداد ، وليس أدل على ذلك من تغلغل النفوذ الصهيوني سياسياً واقتصادياً وثقافياً في إيران . والتوجه نحو الثورة الفلسطينية باعتبارها الإطار النضالي الوحيد الذي وضع المسألة في وضعها الصحيح باختيارها للكفاح المسلح أسلوباً في المواجهة ، ولأن الثورة الفلسطينية ، والفصيل الأساسي منها ، قد اختارت طريق الاستقلال السياسي ، إضافة إلى ما ميز ذلك الفصيل من حس قيادي واقعي ومستقبلي في

التقاطه للشروط الفكرية والقيمية التي تميز شعوب المنطقة عن غيرها ، وتحدد بالتالي الأسس العامة لمسيرتها التاريخية نحو التحرير والاستقلال ... وهنا يرى الامام الخميني أن الاسلام قيماً وأفكاراً ليس تاريخاً فحسب ، إنه حاضر ومستقبل أيضاً ، دون أن يعني ذلك الوقوع في الانغلاق، بل المضي في المرونة والانفتاح إلى مداها شرط الحفاظ على الخصوصية المميزة . ولم يكن يعادل إيمان الامام بهذه الامور إلا إصراره على بلورتها بممارسات محددة ، ومن هنا كانت دعوته التي لا تهدأ ، للتصدي للإستعمار وأعوانه في إيران وخارجها بكل الوسائل والأساليب ، ولم يكن ليغيب عن باله ، أن الاستعمار ومعه السلطة المنحرفة ، في كثير من مراحل تاريخنا ، قد استطاعت أن تلقي في روع الكثير من المسلمين ، أن الإسلام في قيمه وتعاليمه يفضي إلى الخنوع والإستسلام ، وقد تيسر لها ممن احتلوا ، ويحتلون مواقع القيادة الروحية الإسلامية ، دون أهلية أو جدارة أو إيمان صريح ، تيسر لها من هؤلاء من عزز رأيها ، فكان تصدي الامام لهذا الإشكال تأكيداً على أن المسؤوليات الإسلامية ، ليست هي الانشغال بالجزئيات العبادية والمواعظ ، بل ربط هذه الجزئيات بالقضايا المصيرية ، لتسهم في بناء الفرد والمجتمع المتماسك ، القادر على حفظ كيانه ، ضد أي اعتداء أو تشويه ، ولأنه يرى القيادة الإسلامية ، مسؤولية لا امتيازاً ، رأيناه يختار طريقه إلى قلوب جماهيره ، بعيداً عن الطرق التي ألفناها بما فيها من مداورة ومهادنة في الحق .

هذا هو الإمام الخميني ... الشعب الإيراني ، الشعب الفلسطيني ، الشعب اللبناني ، جبل عامل ، كل الشعوب المضطهدة في العالم ، همه وشاغله ، وفلسطين في قلبه وكذلك ثورتها في قلبه ويده ولسانه ، يعطيها دون حساب ، ويأمل منها الكثير لفلسطين [١] لا يقف كما يقف الذرائعيون عند جزئيات الامور وصغائرها ، بل يرى الامور الكبيرة والمستقبل الكبير ، والحركة الشعبية في إيران ، التي أعاد تفجير طاقاتها وقادها ورعاها ، تنخرط في هموم المجتمع والوطن ، وتؤكد أن خط الاحتجاج الذي رسمه الإسلام في فجره ، وامتد متألقاً في عصور الظلم والظلام ، إن هذا الخط ، لم ينقطع بل هو متصل متواصل حتى يبلغ الله أمره .

(١) يمكن الرجوع إلى الوثائق المنشورة للوقوف على رأي الإمام وموقفه من كثير من القضايا والأحداث العربية ، خاصة بيانه بعد حرب تشرين ، وبيانه العظيم أثناء معركة آذار والذي توجه فيه إلى الثوار الفلسطينيين واللبنانيين وأهالي جبل عامل .

لماذا ننتظر الإمام الصدر؟

الكتابة عن الامام الصدر ـ الآن ـ صعبة ، صعوبة غيابه ، وصعوبة ما يمكن أن ينتجه هذا الغياب ، طال أو استمر ، من ارباكات ، قد يكون الملتقون مع الامام في مستوى القناعات أكثر جدارة بالاحساس بها والحذر منها ، ممن يلتقون معه في الطريق ، بعض الطريق ، وعيونهم على المفارق .

ولكن تصبح الكتابة أقل صعوبة ، إذا لم تكن مسكونة بهاجس التكفير عن ذنب في موقف ، فتقارب الموضوعية ، وتصبح المسافة بين الكاتب وبين الامام،رجلا ومؤسسة، شاهد هذه الموضوعية، علماً بأن هذه المسافة ، بين الإمام وبعض مقدريه ، لم تكن ثابتة يوماً ما ، كانت تطول وتقصر ، ولكنها في طولها وقصرها ، محكومة بنمط من العلاقة التكاملية ، التي بقدر ما تتضمن قبولا وتأميناً على العام في خط سير الإمام ، تتضمن نقداً لهذا أو ذاك من الجزئيات والتفاصيل في هذا الخط ، وفي هذه الحال يصبح

النقد اقتراباً ، ويتيح للواقف على أطراف المسافة ، متحركاً غير ثابت ، قدرة أكثر على استيعاب الإشكالات التي يفرزها غياب الإمام الصدر .

وفي هذه الحال أيضاً ، يكون من الأجدى ترك الكلام عن الإمام الصدر شخصاً ، إلى الكلام عنه تعبيراً ، يضيق أو يتسع ، يتقدم أو يتراجع ، باختلاف زاوية الرؤية أو باختلاف الظروف ، وفي طليعتها ظروف الحرب اللبنانية ، التي جعلت بتعقيداتها ، الكثير من المواقف والرؤى تدور في فضاء من الزئبق ، سواء اتجاه الاحداث أو الاشخاص أو الفئات ، مما جعل كثيراً من الكلام يسفح ، وكثيراً من الخسائر تقع ، مما كان يمكن تلافيه ، ولن تعوضه مراجعة نقدية ، يخشى معها ، مهما تجذرت ، أن تكون تبريراً لما مضى أكثر منها تأسيساً للآتي .

التعبير عن المنهج :

يمثل الإمام الصدر تعبيراً عن الشيعة ، في تواصلهم مع تاريخهم ، لا عن حالة فيهم راهنة ، أو وليدة ظروف ناشئة ، عن الشيعة المسلمين ، لا بما هم مذهب(DOCTRUINE)بل بما هو التشيع منهج في فهم الإسلام فكراً وعقيدة ، ومنهجاً في التعاطي مع حركة التاريخ ، لم يبتذل في رفضه للإنحراف والتحريف ، ولم يساو في رفضه بين التعارض والتناقض ، ومن هنا اختلف سلوكه ، وتيرة ونمطاً ، بين عهد الخلفاء الراشدين وبين العهدين الاموي

والعباسي ، فكان التسديد والمشاركة في الرأي والعمل في الأول ، والمواجهة النضالية الجذرية في الثاني ، مما جعل التشيع محور استقطاب لكل الذين سارعوا إلى قبول الإسلام عندما وجدوا فيه مشروع خلاص دنيوي وأخروي لهم ، ثم فوجئوا بأنه سرق منهم ، وحيل بينهم وبينه ، فكانوا بذلك وقوداً لحركات تذرعت بهم ثم التفت عليهم ، وحركات جسدت طموحاتهم وآمالهم ولكنها لم تصب نجاحاً . ولكن ذلك لم يقتل فيهم ، على اختلاف المراحل ، ارادة التغيير والثورة .

والإمام الصدر ، بالتناغم بين الإصالة والمعاصرة في تعامله مع الفكر والواقع ، كان يمسك بالجوهر في انتمائه الديني ، مما مكنه أن يفلت من إسار الارث التاريخي ، النفسي والسياسي للحروب الصليبية ، والذي ما تزال « الجبهة اللبنانية » حريصة على إحيائه وسقيه بدم المسيح فأفلت بذلك من عقدة التعامل مع المسيحية والمسيحيين حداً وصل معه إلى وضع نفسه في مواضع الحرج بعض الأحيان ... ومن كانت هذه حاله فهو على المستوى الإسلامي أجدر أن لا يقع في ورطة الإنغلاق المذهبي ... وبذلك يصبح واضحاً أن الإمام الصدر عندما يقترب من الشيعة منهجاً وقيماً وواقعاً ، يقترب على أرضية دينية إنسانية أولا وإسلامية أساساً .

الاحتمال الكبير :

هنا لا بد من السؤال : من هم الشيعة ؟.. الآن ... لا تاريخاً فقط ...

.. هم ذلك البساط العريض من المليون وسبعمائة ألف مصل في ساحة (جالة) في طهران يرفعون أيديهم وشرايينهم وقلوبهم والأرواح ، احتجاجاً ورفضاً ، حتّى الشهادة ، لأعتى سلطة عرفتها المنطقة في تاريخها ، وحظيت بما لم تحظ به سلطة أخرى من تدليل العمالقة الكبار على اختلافهم في السياسة والإيديولوجيا والمصالح ... ابتداء من (سلفادور الليندي) وانتهاء (بفان ثيو) ... الشيعة هم ذلك الإحتمال الكبير ، العريض ، العميق ، من التغيير ، الآتي من إيران ، من خارج اسوار السنتو وقبضته وبرامجه ،منذراً بعهد من المراجعات والتراجعات السياسية والإيديولوجية ، كونه لا يستعيد علاماته وسماته من هنا أو هناك .. بل يأتي من الإسلام ، الذي كان التخلص منه تاريخياً ، تحويله إلى تراث وحسب ، أملاً مبالغاً فيه أكثر منه واقعاً أو ممكناً .

وإذا كان لا بد من الوقوف طويلاً عند سمة تميز الحركة الإسلامية الثورية في إيران فتأتي (إسلاميتها) في الدرجة الأولى .. ومن هنا فان من المستحيل أن يعثر المتابع في أدبيات الحركة على لفظة تشيع أو شيعة أو طائفة أو مذهب .. بل كما الإسلام مزروع في القلب والعقل .. كذلك هو على اللسان . ولعل الأكثر ازعاجاً في المنظور السياسي .. أن تهتف مظاهرات طهران بخيانة السادات وسقوط كامب ديفيد وتعلن إصرارها على تحرير القدس .

ضد الانكفاء :

وإذا انتقلنا إلى لبنان ، نرى في أساس ما يميز الشيعة ، أنهم

في حين لم تكن عروبتهم ، ولاء وعطاء وحتّى (عرقاً) مشوبة بشيء ، كما يثبت التاريخ ، قديمه وحديثه ، فإن تشيعهم قد تم على يدي أبي ذر ... الذي قال : عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج شاهراً على الناس سيفه ... وهم مقيمون ، شرقاً ، على خاصرة الشام حيث كان (هولو حيدر) و (ملحم قاسم) بالتحامهما مع جماهير البقاع مع الثورة السورية الكبرى دليلاً على موقعهم التاريخي ، وجنوباً ، يقيمون على كتف الجليل ، مفتوحة شرايينهم وصدورهم ، حيث انطلق الرفض الشيعي للدويلة الشيعية في عهد الانتداب الفرنسي من ضمن خطة التجزئة ، وانطلق قادة العصابات الوطنية يسهمون أيضاً في الثورة السورية إياها ... وهم، هنا وهناك، جنوباً وشرقاً وسواراً تاريخياً حول العاصمة ، يعطون من لحمهم ودمهم الكثير ولا ينالهم إلا القليل من العطاء ، لم يتزحزحوا عن انتمائهم ولم يخونوا وجدانهم الثوري ، وإذا ما شعروا يوماً بأنهم الأكثر تحملاً للضريبة على طريق لبنان العربي الموحد وفلسطين العربية الحرة ، واحتدم حزنهم وغضبهم ، فإن لهم من نقاء الإنتماء ووعي الحاضر والماضي وآمال المستقبل ، ما يحصنهم ضد التراجع والانكفاء .. مدركين ، بأن قوى بعينها ، في الداخل والخارج ، كانت وما تزال تعمل لإبقائهم رقماً ، احتياطي عمل في زمن السلم ، واحتياطي شهداء في زمن الحرب ... ومن ثم تلتف عليهم في النهايات لتخرجهم من تاريخهم وشرفهم ، إنهم يدركون أيضاً دورهم وثقلهم ، يدركون أنهم باستمرارهم

وصبرهم ، يشكلون تهديداً بالإخلال للمعادلة التي رسم الإستعمار أطرافها وسلمها لوكلائه ، وإذا ما كان هؤلاء الوكلاء على اختلاف السحنة والنبرة ، بعد الفراغ ، بعد غياب الامامين المجاهدين الأمين وشرف الدين ، استطاعوا أن يحتووا من كانوا في سياق ما ، أمام احتمال أن يشكلوا محور استقطاب للشيعة وتعبيراً عن حالهم وآمالهم وطموحاتهم ، فإن الإمام الصدر ، لا لمجرد رغبة ذاتية عارضة ، أو ذكاء مجرد في التعامل مع ما استجد من الوضع الشيعي ، بل استجابة للواقع وسعياً للتطابق مع معطياته ومؤشراته ، استطاع أن يشكل ذلك المحور وذلك التعبير .

وحتى لا نذهب بعيداً ، فان لنا في عشرات الآلاف الذين زحفوا إلى دمشق ، وكأنهم آتون ، من كربلاء ، دليلاً على صحة هذا القول ، مع بقاء احتمال أن تنحسر هذه الموجة على تقدير عودة الإمام ، وارداً ، وبالتأكيد ، فان هؤلاء الزاحفين ومثلهم ، بل أكثر ،ممن كان يتابعهم ، قد لا يسعفون الإمام بأصواتهم في معركة انتخابية نيابية أو في معركة رئاسة المجلس النيابي على سبيل المثال ، ولكن ذلك لا يغير في واقع الأمر ، ولاء والتفافاً ، وهم... في الشدائد تأكيداً سوف يتعاملون مع الإمام هكذا ، لأنه التعبير عن حالتهم وتوجههم ، عن أشواقهم وتطلعاتهم .

الغياب ورغبة العدو :

كيف نفهم غيابه إذن ، ونخاف منه ... ربما ، العدو قبل الصديق ، يقدم الاجابة الصحيحة على هذا السؤال .. ومن هنا

يجدر بنا أن نتذكر أن العدو الصهيوني بعد فتح (الجدار الطيب) قرر أن الشيعة قطيع بلا رعاة ، ولكن العدو يعلم يقيناً ، أن هذا القرار فيه الكثير من العجلة والتعسف ، ولعله يعكس رغبة العدو أكثر مما يعكس الواقع ، ولكن غياب الإمام يحول هذه الرغبة إلى واقع فعلي ، ويأتي موقف الشيعة في الجنوب ، بعد الإحتلال ، مخيباً لآمال العدو وحلفائه فلا يحظون بالقبول إلا من فئة ضئيلة من الناس ، من أفراد معروفين بكونهم خارج التشكيلة الاجتماعية الجنوبية ، خارج العلاقات والقيم والتقاليد ، خارج دورة الإنتاج حتى ، بينما الوجهاء والمختارون ورؤساء البلديات ، الذين ربما اعتبروا خطأ ، احتياطي العدو الصهيوني وحلفاءه ، هؤلاء ، خيبوا كثيراً من الآمال والتوقعات هنا وهناك ، وزادوا من غضب الصهاينة وعملائهم ، من هنا فان غياب الإمام الصدر ، مع هزال أشكال التعبير الأخرى ، وضعف محاور الإستقطاب ، وعدم ضمانة التعويض ، يشكل فرصة تاريخية للإنقصاص على هذا « القطيع » ، وهنا يتناغم الخارج مع الداخل ، فالذين راهنوا طويلا على اختراق السياج الشيعي ، لاحتواء الشيعة ، ثم فوجئوا بهاجس التنظيم لدى الشيعة ، والذي جسد الامام أولى محاولاته الجادة ، رغم صعوباتها ، فكان قرارهم الضمني بمنع بلورة هذا التنظيم ... لأنه في المحصلة النهائية يشكل إخلالا بالمعادلة إياها ، لا على مستوى لبنان فحسب ، بل على المستوى العربي عامة ؛ وأبعد منه ربما ، لأن التنظيم ، الإلتفاف ، التمحور ، في مؤسسة

حول شخص أو معه ، الكثير من المصالح والاحلام ، التي لاتتحقق إلا على حساب لبنان العربي الموحد ، الفاعل في الواقع العربي والمنفعل به ، سلماً وحرباً ، وحدة و « تجزئة »، عداء لإسرائيل أو سقوطاً في قبضتها .

والسؤال الأخير ، أمام المشروع المحتمل للأطراف الثلاثة كارتر والسادات وديستان لحل الأزمة اللبنانية ، الحاقاً لمؤتمر كامب ديفيد وانسجاماً معه ، وأمام مشروع التوطين بما يقضي من قمع وضرب وفرض ، وأمام احتمال التقسيم — من ضمن المشروع طبعاً — وضرورة أن لا تترك للجنوب من فرصة إلا أن يكون الفاصل الرخو بين الكيان الصهيوني من جهة والكيان المحتمل من جهة ثانية ... أمام هذا كله ، هل يعني غياب الإمام شرطاً .؟ على أي حال ... فان مشاريع كهذه لا بد أنها المقيدة الأولى من غيابه ، سواء أكانت قد أسهمت فيه ، أو أنتها الرمية من غير رام.

أخيراً ، إذا كان التماثل الظاهر مع الإمام في الكثير من الحالات يخفي الكثير من التمايز واقعاً ، فانه ، وبالمثل ، يخفي التمايز الظاهر الكثير من التماثل في الواقع ، من واقع هذا التماثل ، والتجانس، نشعر بخطر غياب الإمام وننتظر عودته سالماً ، ولا نملك سوى الشوق والأمل والرغبة ، ومقداراً كبيراً من الخوف ، أن يحدث ما نكرهه فيحدث ما نخشاه وما يأمله البعض .

أملنا بالله ، أن يعود الامام الصدر ، لنحبه كثيراً ونختلف معه قليلاً ، ثم في لحظة ما ، أمام تحد ما ، نرضى ويرضى ..

يوميات رحلة باريسيّة في زمن غير عادي
الخميني : خدا حافظ •

— ١ —　　　خريف ١٩٧٨

باريس .. مرحباً .. مطار أورلي أكبر من مطار شارل ديغول ، ولكن الثاني أكثر حداثة .. إذن إلى مطار أورلي ذهاباً بالميدل أيست ، ومن مطار شارل ديغول إياباً بـ Air Franceاير فرانس.. في الميدل ايست ، لا ابتسامة ولا سؤال ، أعجبتك الرحلة أم لم تعجبك .. لا فرق ، وأسباب السفر معروفة ، الانتقال إلى باريس طلباً للهدوء في أكثر المدن اللبنانية هدوءاً ، وانتظاراً لنهاية الحرب .. انتظار أقرب إلى الرغبة أكثر منه توقعاً أو معرفة بأسباب الحرب أو السلم .

في اير فرانس .. إصرار على معرفة رأيك بالرحلة وأسباب السفر .. تجارة ؟ سياحة ؟ زيارة أقارب ؟ من طرفنا علامة (X) على كل الإحتمالات الأوروبية المحكومة بحاسة شم نفطية حادة مصحوبة بابتسامات دبقة ومسننة .. الجواب هذه المرة ربما لايعني

شيئاً للمشرفين النفسانيين والإحصائيين في الشركة (زيارة الخميني)
وإن كان يعني الكثير للبوليس الفرنسي والسافاك ومصانع المفاعلات
النووية والميراج وعمال الصيانة في أجهزة التدفئة والتبريد .

— ٢ —

— ستكون بلبلنا في باريس — بلبل بينكم يصبح بومة في باريس.
ومن اللحظة الأولى ، طارت كل المفردات الفرنسية المحفوظة عن
ظهر قلب .. ترى هل كانت تطير لو كانت محفوظة عن قلب
القلب ؟ ولكن من يستطيع أن يدخل هذه اللغة إلى قلبه ؟ يمكن أن
ينسى عذابه في مدارس القرية الرسمية وغيرته من تلامذة الراهبات
والفرير والليسيه واتقانهم الفرنسية ، ولكن هل يمكن أن ينسى أن
بنت جبيل في العشرينات أحرقت ونهبت ، ودفعت مع القرى
العاملية غرامة باهظة أتت على الدجاجات والصيصان وما تبقى من
لآن الأوامر ما تزال تصدر باللغة الفرنسية .. تحول البابل إلى بومة،
ثم تحولت البومة إلى ببغاء ، هكذا أفضل في باريس .. وفي محاولة
لسد الجوع ، اشترينا ما توقعنا أنه (لبنة) فتحول (بالعربي) إلى
(غزل بنات) أكلنا خبزنا ناشفاً ، وضحكنا من القلب ، خدعتنا
اللغة الأجنبية مرة ثانية ، الخوف من أن تخدعنا ثالثة ورابعة .

جبل عامل . لبنان . باريس . زيد وراءه ، عشرات الملايين ،
يصر على الافلات منها ، يمعن في الصعلكة ، ويغرق في لهجته
الجنوبية ، كأنما يستدعي مشادات القرويات على عين (شمع

ومجدل زون) (١)ولكي يتأكد من أن الملايين لن تسحبه وتسجنه
يقف في فلسطين ويضحك ، يضحك حتى رسغيه .. وآخر حاول
قبله الخروج من ملايينه ، أحكم موقفه ولغته ولكن لم ينصعلك،
فاجأته الحرب اللبنانية بتعقيداتها ، أجرى حساباته بسرعة ، غازلته
ملايينه ، طار إلى باريس ، تحول إلى ذكرى . يقول : إنه انتقل
من الشعر إلى القرار .. أقول : إذ يتحول الفعل الثوري إلى شعر،
فأحرى بكل الأرقام أن تنحل في ماء الشعر ..

زيد لكي يحتفظ بالمسافة بينه وبين اللغة الفرنسية ، اصطنع
لغة تعطيه حقيقة هذه المسافة ، بشيء من الطرافة يشوه اللغة الفرنسية
فيتقرب إلى عروبته أكثر ، ويعلمها لمن هم على شاكلته هماً
وأحلاماً .

أقلع الولد العاملي الآن عن ندمه لأنه لم يتقن اللغة الفرنسية ،
ولكن عض أصابعه لأنه لم يتعلم الفارسية ؛ التي شعر بالحاجة اليها
عندما رأى بأم عينه وقلبه شعارات (الموت للشاه — عاش الخميني)
في محطات المترو .

ربما كتب في تاريخنا الجاري أن آلافاً مؤلفة من العرب قد
تعلمت الفارسية بشغف وأتقنتها بسبب الخميني .

---

(١) قرى عاملية في منطقة صور على الشريط الحدودي .

— ٣ —

باريس .. ايران .. ساحة جالة .. الخميني .. قف لحظة ..
الطلاب الايرانيون من كاليفورنيا ، هامبورغ ، برلين ،كوبنهاغن ،
التجار ، رجال الدين ، المثقفون ، الأطباء ، علماء القانون
والاقتصاد ، فقراء إيران .. الله أكبر ،تنعقد الصلاة جماعة الصفوف
متساوية ، والامام واحد ، الاتجاه واحد ، الفعل واحد في زمن
واحد والعدو واحد . وسؤال : هل كان التصحيح الثوري في
التاريخ الاسلامي مجرد حلم تزين بالدم ؟

الجواب : إلى اللقاء في طهران .. لا في فلسطين لقد أصبحت
طهران قبضة اليد ، قريباً نعود .. تبقى علينا فلسطين ، التي
اختطفوها في صندوق مقفل إلى كامب دافيد ، يجب أن تعود .

خصوصية الخميني ، خصوصية الدرس الايراني أنها لاتحوج
أحداً إلى الصعلكة لتأكيد الهروب من موقع طبقي جبري ، ولا
تحول أحداً إلى ذكرى ، اللهم إلا أولئك المتحلقون بمباخرهم
وأرصدتهم حول التاج .. إنها في مستوى الفعل والحركة ، المسار
والهدف ، العام والجزئي ، كل ما كتب عن مرحلة التحرر الوطني
بما تتضمنه قهراً و(جدلا) من التحرر الاجتماعي على أرضية
الاستقلال التام والناجز ، في حالة من الوعي الكامل ، غير المستعار ،
غير المبتذل ، الواثق ، غير المندهش للذات للخواص والمكونات
بتناغمها ، بتاريخيتها ، ماضويتها وحاضرها ومستقبلها . إن أتت
من التراث ، فعلاقتها به ليست اتكاء يوجعه ويوجعها ، يؤول في

النهاية إلى خداع وعتمة ، تأتي منه فلا تهدره ولا تضيع ،لاتنحبس
فيه ولا تحبسه ، تتواصل معه مع ثوابته واضاءاته ، تنفي منه الدغل
والمرفوض ، المرفوض حتى الشهادة .

تتجاوز فرساي بما فيها القصر بما فيه قاعة المرايا ، وتسير
(دغري) باتجاه الخميني .. الغرفة لا تتسع لعائلة ريفية إيرانية
أو عاملية ، ولكن قلب المفترش أرضها العارية يتسع لمئات الملايين
شرقاً حتى أندونيسيا . إنه يصر في كل كلمة يقولها على أن ما يجري
في إيران هو درس للجميع ودعوة للجميع بأن لا يدخروا وسعاً
في مقارعة الظلم والظالم أينما حلا .

بالأرقام .. كان مصروفه الشهري ثلاثين ديناراً عراقياً . يمكن
حسابها الآن بالفرنك الفرنسي مع زيادة تتناسب مع المسافة بين
النجف وباريس ، ولعل أدق تعبير وقياس لهذه المسافة هو ما قاله
ضابط فرنسي مكلف بحراسة الامام .. قال : عندما أحال على
التقاعد سأكتب في مذكراتي أني نلت شرف حراسة هذا الرجل
العظيم .

يأتيه محبوه ، بما يتوجب عليهم من الحقوق في أموالهم امتثالاً
للحكم الشرعي ، فيغضب ويقول : أنا لست صرافاً .. إذهبوا
واصرفوها في وجوه البر ، في المشروعات العلمية والانتاجية ،
ويشكو ولده الأكبر الشهيد مصطفى أمره إلى أحد المراجع الدينيين
ويقول بأن والده يعامله معاملة غيره من طلبة العلوم الدينية ، رغم
مسؤولياته الحياتية الكثيرة .. وولده الثاني ، يستحيل على زائري

والده أن يعرفوه ، فهو لا يتميز عن الزائرين بشيء .. وهو
الخميني ، زرته مرة أو مرات ، قدمت له خدمة أم لم تقدم ،
لا تتغير المعاملة في حال الرضى وهو يغضب إذا ما أخطأت فيما
يخص العمل .. العمل فقط . في علاقاته ، في تعامله المباشر واليومي ،
يساوي بين الجميع ، القريب والبعيد ، وأثناء حديثه يحدق في
البعيد ، في إيران ربما ، وفي ساحة جالة قطعاً ، وإذ تشهد ذلك
منه ، لا تلبث أن تنتزع ريش الطاووس ، الذي ربما تزينت به في
لحظة ضعف أو قياس خاطىء ، وترتفع قامة شاب متواضع ،
قابع في أقصى الحلقة تطلع من عينيه قامة بطل يقتل اللحظات فعلاً
ويحلم بالشهادة ويحلم بالنصر ، يتصارع الحلم مع الحلم ثم
يتصالحان ، وينهض البطل ، يرتدي جبته ، يقبل يد قائده ويمضي
إلى طهران .

— ٤ —

يسألني صديق في بيروت ، يراجع أموره ، ويخيل لي أنه
مدهوش بشيء ما ، أحبه وأوافق على مراجعاته ، يسألني : وهل
مشروع الخميني أكثر تقدمية من إنجازات الشاه ؟...

ويسألني شاب إيراني في باريس هل تعرف فلاناً ؟ أجبت
بالنفي ، قال : لماذا ؟ قلت : لأنه غني جداً .. وأخذ المتحلقون
حول فعل الخميني ، المشاركون في فعله ، الحديث ، قال أحدهم :
إني أتساءل ، بتبسيط ، دون الدخول في حسابات التراكم الرأسمالي
واستلاباته ، هل يمكن لغني في حالتنا ، هنا في إيران أو هناك في

لبنان أو... الخ أن يكون ذا وجدان ؟ وتشعب الحديث قال آخر :
إن الكثير من الأغنياء والظلمة يحاولون أن يصانعوا ربهم في أواخر
أيامهم ، أن يخدعوه ، ببناء المساجد وزخرفتها .. إن خدعتهم
لا تنطلي على ربهم قطعاً .

ويقيناً إن خدعة الشاه ، ذات القشرة التغريبية الرقيقة ، لن
تنطلي على أحد ، إلا أن يكابر .. ومن بعده ، من بعد الشاه ،
سيكون مجد ايران ..

— ٥ —

في باريس ،أكثر المدن اللبنانية هدوءاً..يسألونك أيضاً: مسلم
أو مسيحي ؟ أف .. ولكن طوني قبل يد الخميني بحرارة ولهفة ،
اعتبرها من فرص العمر ، وكان أكثرنا سعادة .. أخشى عليه أن
يقتل في باريس على الهوية .. مجموعة الطلبة اللبنانيين ، من كل
الطوائف والمذاهب ، تذكروا بسخرية ومرارة واصرار على
المراجعة ، أيام تطرفهم ، عندما كانوا يستثيرون العداوات أينما
حلوا ، في البيت ، في المدرسة ، في ساحة القرية ، في المآتم
والأعراس ، في الورشة .. وتعلموا الصلاة .. صلوا جماعة خلف
الخميني ... وتذكروا الآباء والأمهات وختيارية الضيعة ،ووعدوا
أنفسهم بمزيد من الرضى ، قرروا أن يتوقفوا عن عادة الإنزلاق
على جلد أمتهم ، غوصاً إلى العمق ، إلى الشرايين والأوردة ،
إلى التراب ، حتى الطقوس .

— ٦ —

باريس .. الخميني .. غابة من سيقان البشر تسابق المترو ، يسبقها المترو ، تنتظره ، تسبقه ، تتكدس على أبوابه ، ومزيداً من الحفر في قاع باريس ، مائة عام وهم يحفرون في باريس تحت الأرض ، بقية منها ، فوق الأرض ، مع الشمس ، والشمس ليست للاستثناءات،لا تلبث الشمس أن تغضب وتغادر باريس .. أنها مدينة تكرهها الشمس .. وتستفيق في باريس لصلاة الفجر ، ما ألذ أن تتحدى باريس فجر الجمعة ، تطل من النافذة — خمسة وتسعون في المائة من منازل باريس بلا شرفات — تصفعك في الخامسة فجراً عجوز بقي لها سنة لتحال على التقاعد ، تركض لتلحق بالمترو، الكتاب في يدها ، وخاطرها مع الكلب في البيت ، الكتاب في يدها ، في المترو ، في الأوتوبيس .. سؤال : هل هناك ، في باريس ، فرق بين الكتاب والكلب والحذاء ؟

قال صاحبي : أنظر هاتين العجوزين .. كأسان من النبيذ في مقهى ، يعتدى على الرصيف دائماً،مغلف بالزجاج ، مقاعده بالكاد تستوعب جالسيها ، وتثرثر العجوزان ساعات من النهار ، ثم تتذكر إحداهما كلبها ، ربما كان بحاجة إلى قضاء حاجته ، باريس نظيفة إلا من براز الكلاب ، كل كلب في باريس له إنسان ، تودع العجوز صاحبتها وتمضي .. وتبقى صاحبتها مع كأس النبيذ ، تحاوره حتى يفرغ ، ولا تعود إلى ملله ، القضية محسوبة بدقة ، بالكمبيوتر ، على ساعات العمل والأجر والتقاعد ، تذكرت أمي ،

وحسدتها بعدما حسدتني لأني ذاهب إلى باريس ، وقررت أن أقلع عن كره الشاي ، ونشرت أمام صحبي صورة لثلاثين ألف إيرانية متخلفة جداً ، معادية لتقدمية الشاه ، وهن يتظاهرن في ساحة جالة في طهران ، ثم يلدن ويلدن ، ويسمين مواليدهن بأسماء الشهداء .. ووقعت صك الولاء للخميني .

— ٧ —

آخر أيامك في باريس ، ألا تريد أن تراها ؟ كلهم يأتون لزيارتها ، وأنت بين محطات المترو وقصر الخميني ، الخشبي العاري ، البارد ، الساخن سخونة الدم الايراني ، هكذا تمر في باريس ؟ .. في الساعات الأخيرة .. استجبت .. خمس فرنكات شكراً بالمناسبة للبنك المركزي الذي كف عن اصدار قطع الخمسة قروش التي كنا نسميها (فرنكات) — خمس فرنكات ، فقط ، وتكتشف الحرامي ومسروقاته معاً ، بفارق واحد ، هو أن المسروقات تتمتع بحراسة مشددة من قبل الشرطة .. وهذا دمك السائل في بابل ، هذه روحك الآتية من مصر ، مسوحة ومسجونة في زنازين اللوفر ... لست وحدك المغبون ، وإذا كان في لبنان منطقة شرقية وغربية ، فهذا جزء من تراث اليونان ، مسروق أيضاً ، وهذه الموناليزا ، مسجونة في البلاور .. ممنوع التصوير ، رغم الفيلم التلفزيوني الفرنسي الطويل عن تتويج البابا في روما إيطاليا .

تخرج من اللوفر قبل أن تستكمل المشوار ، قبل أن يخنقك

القهر ، وتمضي إلى الخميني ، لتنسى .. تستأذن تاريخك أن يصحبك إلى مستقبلك ، يتعانقان بين يدي الخميني .

باريس ، أراغون ، مالارميه ، بريتون ، رامبو ، كورني ، غورو ، بيتان ، ميتران ، الماريديان ، الشيراتون ، ريمون اده ... لا .. بدوي الجبل ، أمل دنقل ، أدونيس ، سعدي يوسف ، موسى الزين شراره ، الشيخ علي الزين ، أسعد سعيد ، أحمد فؤاد نجم ، سعدي الشيرازي ، الطاهر وطار ، زكريا تامر ، مستوصف جبشيت ، شتلات التبغ ، أغراس الزيتون ، الفيشاوي ، بردى ، القدس ، مكة .. وأنا حر .. هذا ذوقي ، هكذا أكد لي الطلبة العرب .

باريس .. رغم النفط الآتي من عبادان وغيرها وغيرها ، الملابس الصوفية مكدسة في الواجهات ، رغم الشوفاجات والماء الساخن ، ولكن باريس ليست أكثر صقيعاً من الغندورية ... كيف يجرؤ البعض على الموافقة على بقاء النظام الملكي ؟ أنا مع الخميني .. من ضد الخميني ؟

باريس ... عندما صعد الشيخ ليلقي كلمته في تأبين عز الدين القلق ، وقبل أن يبدأ الكلام خرج ثلاثة من الرفاق العرب احتجاجاً.. لماذا ؟ ــ هذه رجعية ــ ولو .. في زمن الخميني . وصفق العمال العرب والفرنسيون والطلبة العرب بحماس عندما ورد ذكر الخميني بالفرنسية مرة وبالعربية مرة أخرى ...

إنه زمن الخميني .. إلى اللقاء في طهران .. لا .. في فلسطين .. كل وصول هو اقتراب .. إلى اللقاء في أي نقطة يبدأ الاقتراب منها نحو أماكن بعيدة ، تقترب ، وتقترب ، في مجرى الدم ... في عيون الشهداء .

ذاهبٌ إلى طهْران ؟

خذني مَعَك إلى القدسْ

.. واقعاً أو تصوراً، أحياناً يبلغ الاستلاب درجة من الشمول، تمسي معها الحركة بين الأطراف ، بين واقعة وأخرى ، بين واقعة وفكرة ، أقرب إلى الآلية منها إلى الجدل .

يصبح الجدل افتراضاً قابلاً للنفي والاثبات ، يدخل التاريخ ولكن لا يحكمه ، ويحتاج في تحققه إلى عامل ودليل من خارجه ، ولا يلبث الهاربون من « الشيء » أن يقعوا فيه . يشعر « هيغل » بتيبس في قدميه ، يحاول أن يعاود المشي على رأسه ، ولكن حقه في الحلم مصادر .

لا نريد الدخول في الدفاع عن « هيغل » وإلا كان علينا أن نكون في صف الحرس الملكي في طهران وضد القوى الجوية ، لأن فريدريك الثاني ومحمد رضا بهلوي ، هما نقطة الوصول في مسار الجدل الهيغلي .. إننا لا نفعل ذلك ، ولكننا ندعو إلى فك الحصار عن الحلم ، حتى يبقى الرأس مكانه .

حتى لا يصبح الرأس قدماً ثالثة
حتى لا يصبح الناس حجارة
حتى لا تصبح الشهادة انطفاء
حتى لا يصبح الدم زئبقاً
حتى لا تسود الكيمياء .

حتى .. من الحلم أيضاً ، نبدأ الاقتراب من نقطة ما .. لاأقول هي القدس .. أقولها سراً .. وأقول لتكن بئر السبع أو عيلبون .

ولكن هل هو حلم حقاً ؟

لا أعني أن الواقع صورة الحلم ، بل أعني أن الواقع بدون الحلم قد يكون أي شيء ، إلا أن يكون تاريخاً أو ذا تاريخ .. فيزياء قد يكون .. ويكون السكون هو المطلق وتكون الحركة هي النسبي .

حلم أن تكون في طهران .

حلم أن يضحك الخميني أكثر من مرة في جلسة واحدة .

وأكثر من حلم أن تكون في الأهواز ، على ضفة نهر كارون، على قيد خطوات من شاطىء الخليج ، على مرمى القلب أو العوزي – العوزي في يدك – من شط العرب ، وتلوح لك البصرة ، بينك وبينها المحمرة ، كعب وربيعة .. وتغني :

« لا تحدر حدار حلوة المحمرة
فضة وذهب مشبوك خدك يا سمرة »
وعبد الناصر معك .
الخميني معك
ومعك أبو عمار .. فلسطين حواليك ،
ها هي في النبض وفي الأجفان . وفي تلويحة الأيدي .
الأيدي ؟؟؟ هنا تضيق صيغ الجمع عن الاحصاء .
الله أكبر .
وانطفأت شمس الأريين ،جفت بحيرة ساوة ،وغارشق وسطيح
الله اكبر
واشتعلت بالرؤية عينا ميدوزا
« درود بر خميني »
تحيتهم فيها سلام
« سلام برعرفات
إنما المؤمنون أخوة
« فلسطين بير وز است »
إن العهد كان مسؤولا
« إسرائيل نابود است »
ليخرجن الاعز منها الأذل

« سورة سورة حتّى النصر »

إن سين بلال عند الله شين

في الطائرة يسود صمت مشوب بشيء ما ، ينتظر شيئاً ما حتّى يفصح عن نفسه ، وعلى سلم الطائرة صمت ، وكأنما الأقدام مثقلة بالحديد . وفي الجانب الآخر صمت ، هو السيد حتّى حين .

هل هو ظل السافاك ما يزال مقيماً هنا ؟ قد يكون ..وقد يكون هذا الفراغ بينك وبين مستقبلك مرصوداً بخيال محمد رضا بهلوي . ويتأكد للواقفين هناك أن الواقف أمامهم هو ياسر عرفات لحماً ودماً .. ويتفجر الهتاف : الله أكبر ، وترتفع شارات النصر . تكنس نسمة من الهواء ما تبقى من آثار بهلوي .. كأساً من النفط ، وقارورة من دم ، ولعنة ، وتقريراً من السافاك .. مشروع يتم أو ثكل لفلاح من ريف خراسان لم يكن ذنبه عندما نفقت ماشيته إلا أن ارتحل أوجاعه إلى قم وشكا سوء حاله لشيخ يقيم ليلا في منزل متداع في طرف المدينة ، ويؤمّ المصلين فجراً في زاوية من زواياها ، ويعلن انحيازه الكامل للعدل .

ومن مهراباد إلى مدرسة علوي .

تتطاير ملفات السافاك ، تغطي طهران غيمة من ورق ،وتعلن العصافير النفير ، لماذا العصافير ؟ لأن التحديث والثورة الزراعية كان اعتداء على العصافير أيضاً ، واحتجت العصافير ، كفت عن الغناء . تظاهرت فسجنوها والشواهد :

١ ــ طفلان شوهدا يدخلان السجن في السادسة من عمرهما ..

٢ ــ أمير حسين ، ١٠ سنوات ، أين كنت ليلة الانتفاضة ؟..
في حينا الشعبي ، أقوم مع أقراني ببعض الفعاليات . هكذا بالنص.
اقرأ : هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب .. ثورتهم كانت فالتة من التحليل والتوقع .. وماذا تريد ؟ أقدم دمي هدية لفلسطين .. هل يرضى ياسر عرفات ؟.. يا سيدي الأمير هذا ياسر عرفات.. ماذا فعلت به ؟.. طفلا عاد .. هللويا الطفولة .

٣ ــ حسن ــ العمر ١١ سنة ــ اقرأ : إذا جاء نصر الله والفتح.. اقرأ أيضاً : ألم نشرح لك صدرك .. إن مع العسر يسرا .. اقرأ أيضاً : والضحى والليل إذا سجى .. ماودعك ربك وما قلى .. ولسوف يعطيك ربك فترضى . قال أبو عمار : إن ثورة إيران فكت الطوق عن الثورة الفلسطينية .

وهذه ثورة كل ما فيها رائع . وأروع مافيها هذه العصافير .. المجد للعصافير في إيران ، المجد لهذا الزغب الثوري . المجد لفلسطين تهدي اليها العصافير دمها .. المجد لفلسطين تطمنها العصافير : إن مع العسر يسرا .

طهران

الباص مقفل .. لماذ ؟ هكذا أراده السيد رئيس الوزراء مكتباً متنقلا له فأغلقه ، لماذا ؟.. أم على قلوب اقفالها ؟..

إذن أنت لاترى سوى ياسر عرفات .. وتسمع ضجيجاً في الخارج لا تميز منه سوى ياسر عرفات .. وتعرف أنك في حي شعبي ، لأنه الضجيج ، والأحياء الشعبية هي التي يبدأ منها الضجيج عملا وثورة ، وإليها ينتهي الضجيج تاريخاً وثورة . والخميني هنا ، في نهاية هذا الضجيج يملك أن يثيره في لحظة ويمسكه في لحظة فتعلو مدرسة علوي ويصبح مستقبل ايران مضموناً. ثم إن الشوارع ضيقة .. والدليل هو أن الأجساد متلاصقة ولاصقة بالباص من حولك . وتشعر بحرارة الأنفاس .. وفي الأحياء الأخرى من طهران . في الحي الآخر في شمرانات أو قرب قصر المرمر ، يتباعد الناس عن بعضهم في الأفراح وفي الأتراح ، لايتلاصقون، ولا تفوح رائحة العرق ، والأنفاس معطرة .. والشوارع واسعة .

ثم إن اللغة هنا ضيقة .. بودي أن أعتذر ، أن أبرأ إلى الله من لوثة الكتابة والشعر ، وأتعلم التصوير الفوتوغرافي .

ما زلت مصراً على خوض معركة فاشلة في ضيعتنا مع عدد من المؤمنين الذن يصرون على هدم المسجد العتيق وبناء مسجد حديث مكانه . لماذا لا تبقى الطريق إلى الله عارية إلا منه ؟ ليبق هؤلاء الفقراء المنتشرون على طول أنابيب النفط وعرض القصور ، يحسون بالألفة مع أماكن العبادة حتى يعودوا إلى الأنابيب و...

لماذا يستفيق هذا الحس الطبقي الآن ؟ حس طبقي هذا أم طبقوية مفرطة ؟ دعونا نمسك بهذا الحس ولا نفقده ، ولكن إسمحوا لنا أن نقول لكم من طهران : إن حركة التاريخ ، هنا على الأقل ، أكثر تعقيداً وأكثر تشابكاً .. وليبق الانحياز للفقراء في القلب وفي الفعل ، في الفكر وفي السلوك ، في المأكل والمسكن والملبس « أأرضى أن يقال : هذا أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم جشوبة العيش أو أكون أسوة لهم في مكاره الدهر .. واعلم أنكم لا تقدرون على ذلك . ولكن أعينوني بعفة وسداد وورع واجتهاد».

والخميني هنا .. يفترش الأرض . ويلتحف السماء وينهمر عليه الزمن .

لم يفتتح حرب الطبقات . ولكنه لم ينتقل مع الثورة من موقع طبقي إلى موقع آخر ، ولا يريد .. وقد كان بامكانه من قبل .. هنا يتمايز الايمان عن العلم .. بين أيدي عمال النفط لا خارجها .. تمسك بالمفتاح ، تقفل ، تفتح ، تعطي بقدر أو لا تعطي ..ولكنها مصرة أن لا تمارس اعتداء على المستقبل النفطي.. مصرة أن يطلع النفط من ايران ويمر بها ، بحواريها وأزقتها ، خضرة وعافية ، قبل قصورها بل دون قصورها .

وهنا .. لأول مرة في تاريخنا المنظور .. لا يكون النضال العمالي مطلبياً محضاً . يكون وطنياً ، سياسياً ومطلبياً ضمناً .. هنا الحصان أمام العربة . ومن هنا السر في اللقاء ، سر الفرح ، سر التواصل، سر هذا التيار الدافق من الحب حول ياسر عرفات الذي وقف يوماً ليقول : هناك خطأ ما .. إن فلسطين تبتعد .. غيروا وضع العربة والحصان .. وابتدأت فلسطين تقترب . وعندما وصلنا إلى إيران لوحت فلسطين . لو أن الأنظمة جميعها كانت رتقاً على فلسطين ، وكانت فلسطين في القلب والضمير لجعل الله لها منهم في إيران مخرجا .

من أنت ؟ « أنا (٥) حزيران العربي . أنا أسبوع سقطت منه الأيام على عاطفة الشرق .. أنا الحرب على نفسي » .

وأنت : أنا حلم غار في عيني مصدق ، ودم تنزى من جراح حسين فاطمي ، وحماس فاض شهادة من نواب صفوي .. أنا وجدان علي شريعتي .

ويلتقيان : تغيرت ، أنا الفاتح من كانون (٦٥).

أنا الكرامة . أنا دلال. وأنا في الماراتون ولي خيمة في كامب ديفيد قيد الانشاء وأكرهها .

وتغيرت : أنا (٥) حزيران (٦٣).. أنا مجد المنفيين ، أنا منفى النافين أنا ربيع الأول والثاني والثالث .. والعشرون .

هات يدك .. ويمسي الماراتون منتجعاً ، يستحم أبو عمار في طهران يومياً .. تكتمل القصيدة في أوراق كمال ناصر ، تزهر أقحوانة على ضريح دلال . تشتعل النار في كامب دافيد ، وترتفع صور الخميني في الضفة الغربية .

بهشتي زهراء .. جنة الزهراء .. مقبرة تلك أم كتاب ؟

وعندما حاصرت جيوش المسلمين كسرى يزدجرد لم يلتفت إلى رأي ناصحيه بمسالمتهم ، وأرسل إلى ملك الصين يستنجده ، فكتب اليه ملك الصين يقول : ما منعني من أن أمدك بجيش أوله في مرو وآخره في الصين جهالة لي بحقك .. ولكن القوم الذين وصفهم لي رسولك لو حاولوا الجبال لهدوها ، لأنهم أهل إيمان وقضية وأنا أخاف على جيشي وأنصحك بأن تسالمهم .. فأبى .. ولكن مات بعد شهرين من ذلك .. ولعله دفن في الرباط ،والله أعلم . وفي كربلاء سأل علي بن الحسين (ع) أباه قال : أولسنا

على حق يا أبتاه ؟ قال : بلى قال : إذن لا نبالي وقعنا على الموت أم وقع الموت علينا .

وبعد مظاهرة جالة وارتفاع الآلاف من الشهداء قال الخميني :
لا بد أن ينتصر الدم على السيف وقال أبو عمار في بهشتي زهراء: إنه ليس شعراً .. هذا الدم الحار الذي تدفق هنا أغرق السيف فثلمه.

ومسحت إيرانية كهلة الدمع عن وجنتيها ، وعلت جبينها إشراقة النصر وانحنت فوق ضريح شهيدها تقول : لقد ذهب الشاه كما أحببت .. وهذا أبو عمار في جوارك . قم شاركنا الفرحة .. لن تقوم .. إنك عند ربك في جنات وعيون .. هنيئاً لك .وسأنوب عنك في الاستمتاع بهذا العرس .. إنه عرسك أيضاً .. إنه الغياب الحضور ، كما يكون الحضور غياباً .. « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ».

أيها الأخوة لماذا تفعلون هكذا ؟ يجيبون ، كانت فلسطين جريمة يعاقب عليها السافاك ، يصادرها من القلب واللسان ... ويتساهل مع الهيرويين .. أوليس من حقنا إذن أن نعاقب السافاك . بقبلة ؟ ثم إن كل الوجوه التي كانت تأتينا ، لم تكن تأتينا ، كانت تأتيه هو .. فيفرضها علينا ... ليست كوجوهنا .. كلها موردة بالويسكي والكافيار .. ودمنا يجري في عروقها .. وهي تتوارى منا، تغرق في المقاعد الوثيرة .. ومفروض علينا أن نحييها من بعيد ..لقد كان خوفه في محله .. والآن هذا هو الضيف الأول الذي نستقبله نحن .. هذا هو الوجه الأول ، يأتي الينا من الخارج فنكتشف أنه في الداخل . في داخلنا .. وهو الوجه الأول الذي يشبه وجوهنا ...

أنظروا ألا ترون الشحوب فيه .. شحوب الهم والعناء والسهر . شحوب الجهاد .. ؟ ثم انه يعني في النهاية شيئاً كان لنا حلماً ...يعني أن الشاه خارج إيران .. وهذا توقيع على وثيقة سفر الشاه إلى غير عودة .. دعونا نقبل التوقيع إذن ..

طهران .. الامام الطالقاني .. هذا الاسم المصقول بالسجن .. هو على خلاف مع الخميني ، أليس كذلك ؟ أهلا أهلا ..يبدو أن بصارة ما تعمل مراسلة صحافية من طهران .. وتكريماً للطالقاني . يرسل الامام الخميني نجله السيد أحمد مع الوفد الفلسطيني لزيارة الطالقاني . وقليل ممن ذهبوا يعرفون أن من كانوا يتولون حماية الخميني في باريس مفروزون الآن لحماية ومساعدة الطالقاني . إذ ما زال السافاك موجوداً ، وربما ابتدأوا بتقديم طلبات الانتساب.

مع الطالقاني ، تشعر أن هناك نموذجين يتكاملان ، فتطمئن إلى أن الخميني يمتد نموذجاً . وحالة . إذ يكتمل الامام المنتظري بالإمام الطالقاني . الامام منتظري البسيط ببساطة فجر الدعوة ، ببساطة محمد (ص) الذي واجه اعرابياً ارتجف حين خاطبه مهابة بقوله : هون عليك ما أنا إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة . يكتمل هذا النموذج المحبب الأليف بذلك النموذج المهيب الذي يمثل الشموخ الثوري الاسلامي . ويبدأ الطالقاني مع ياسر عرفات بالتساؤل : حلم هذا أو يقظة ؟ ويقرأ آية الاسراء .. وينهي بالقول تأتون الآن من مسجد الثورة في فلسطين إلى ثورة المسجد في إيران.. ولا بد لثورة المسجد أن تكتمل في مسجد الثورة . والاسراء في النهاية أكثر من الانتقال ، أنه الحركة،إنه التواصل في مسيرة الثورة.

في يوم من أيام الرحلة ، دعت مجموعات يسارية ؟؟ إلى مظاهرة خاصة بها ، وعندما لم تفلح في التظاهر تراجعت إلى مهرجان في جامعة طهران .. أبرزت عناوينه وضخمت حجمه أجهزة أعلام تنسحب ليبراليتها اللفظية أحياناً ، وتخلي مكانها إلى لقاء لفظي مع النقيض ، الذي يلتقي بها في نهاية المطاف ، وربما تجاوزها إلى اللقاء بما هو أدهى ، وفي نفس الوقت الذي دعت فيه إلى المظاهرة ، كان كريم سنجابي يعلن أمام حشد كبير في وزارة الخارجية أن سياسة إيران الخارجية سوف تبنى في المستقبل على ضوء موقف الدول من فلسطين .

وفي مأدبة الغداء في وزارة الخارجية أيضاً ، وقف الخدم ينتظرون ذهابنا وإيابنا لينحنوا لنا في الذهاب وفي الإياب .. لاحظ الدكتور مهدوي ذلك .. كما لاحظ أن عدداً من المقاعد على المائدة فارغ .. وقف وقال بعبارات قاطعة : لماذا هذا الانحناء ؟ خلعتبري

ليس هنا ، لا انحناء بعد اليوم .. ثم إن تكريم الضيف واجب ولكن لا يكون باحتقار الذات . تفضلوا إلى الطعام .. تنهد الخدم طويلا وتذكروا قول علي (ع) لقوم انحنوا أمامه في الكوفة ما هذا ؟ قالوا : عادة نكرم به كبراءنا فقال : إنكم تذلون بذلك أنفسكم وتطغون به كبراءكم وتشقون به عند ربكم ..

أليس من يخاف على إيران من مناخ كهذا مدخولا في فكره والتزامه ؟ ومن يخاف على العرب من ايران الثورة هذه ، إنما هو شوكة لا بد أن تقتلع لنزرع مكانها وردة من مشاتل الثورة الإيرانية. والسؤال ماذا نريد ؟.

أولا : ارتفع الكابوس الجاثم فوق صدر الخليج وانسحب الجيش الايراني من عمان .. والجزر موضوع جاهز للنظر .. ليست نوايا فحسب إنها مسؤولية أيضاً .

ثانياً : لا يعادل القرار الايراني بالزامية اللغة العربية في مراحل الدراسة في نص الدستور ، كافة إلا شكوى مجاهد كبير وحسرته ، لكون الايرانيين لا يتقنون اللغة العربية .

وأخيراً أعلنت إيران نفسها دولة مواجهة ..

ويبدو أننا لم نكن نتوقع ، بل كنا نفترض سلفاً بأن ثورة تقول بأن الإسلام قاعدتها ومنهجها ، لا بد أن تكون قمعية من ناحية ومتخلفة من ناحية أخرى ، ويبدو أننا سنبقى إلى أمد غير قصير راضين فعلا ، وإن اختلف القول أحياناً ، بالصورة التي قدمها لنا

المستشرقون عن الاسلام ، وكان آخرهم رودنسون في هذيانه الصهيوني الأخير ، هذه الصورة التي كلفوا بتلفيقها فوضعوا اليد على جزئياتها في كل شواهد التفاهة والخروج على الإسلام فكراً وسلوكاً .

ويبدو أن نقصاً في المعرفة ما يزال يعتورنا ، فيلتقي مع المعرفة المحرفة لدى أجهزة الاعلام المعادية .

وللعلم فقط .. إن الخميني تلميذ جعفر الصادق (ع) فقهاً وعقيدة وسلوكاً .. ومن علامات جعفر الصادق أنه عاش فترة تكاثر التيارات الفكرية المتناقضة في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، ويؤثر عنه أنه كان شديد الصلة بملحدي وزنادقة عصره ، ويحاورهم بقلب وفكر مفتوح ، ومما يروى عنه وله دلالته أنه التقى في موسم الحج كبير الملاحدة عبد الكريم بن أبي العوجاء فقال له : ما الذي أتى بك ؟ وهل اهتديت ؟ قال : معاذ الله وإنما هي سنة البلد وعادة الجسد ولنرى ما الناس فيه من جنون وحلق ورمي .. لقد أمعن في تسفيه شعائر الحج ولكن جواب الامام كان أنه ضحك وقال : لا جدال في الحج ، إذا انتهيت فأتنا.

والأخوة الايرانيون يبدأون من نقطة التأكيد بأنهم نقيض العهد البائد بكل سماته وملامحه . ومن هنا فهم مصرون على الحريات الديمقراطية حتى النهاية . ولم يسمع واحد منا في طهران أو منذ كانت لبعضنا علاقة بهم أحداً منهم يتهم فصيلا يسارياً بالعمالة . بينما هذه التهمة شائع تبادلها بين هذه الفصائل العشرين .

لعله من حقنا هنا ، وقد بدأ البعض يتلقف ما تقدمه أجهزة الاعلام المضادة التي فرغت من مرحلة نجاح الثورة ، لتعمل في حاضرها ومستقبلها تشويهاً ، وبالتالي لتزرع مسافة من الشك بينها وبين عمقها العربي .. من حقنا أن نتوقع أن يأتي يوم ، ولعله قريب ، بل ربما لاحت تباشيره في الأفق ، يوم يتولد فيه من أحشاء الدهشة التي كانت صفة تعاملنا مع إيران ، نوع من الحساب مع الذات ، قد ينتهي بعقوبة ما .. وهنا يأتي دور الاسقاط من جديد، وهناك من يعدون لهذه العقوبة دون شك ، ولكن السياط سوف تنهال على جلد الثورة الايرانية ، ولسوف تبقى على الجلد أيضاً .. ودائماً في حالات الفصام الثوري تدفع ذاتك باتجاه الآخر لتبرر العقوبة ، وهنا تتحول الثورية إلى نزعة تدميرية ، قد يغطيها الاتزان العلمي الذي طالما عودنا أن يكون غلافاً لكثير من الآثام الثورية .

إن في الانقسام الحاد بين كمبوديا وفيتنام وبين اليمنين بنسبة أقل ، ومع قلة الأصوات التي تصر على الوفاء للماضي الثوري ، الماضي على الأقل ، لكلا الطرفين ، لا يبقى الانحياز للحق ، حتى بالمعيار الذاتي ، الذرائعي أو السوفسطائي ، هو الوصف المناسب للموقف .. بينما كانت وصية علي بن أبي طالب (ع) لا تقاتلوا الخوارج من بعدي فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه » وفي التعامل مع إيران ، حاضراً ومستقبلاً ، ليس المطلوب الانصاف ، لا بمعناه العلمي ولا الاخلاقي ، ولا الموضوعية أيضاً ، قد يكون كل ذلك مطلوباً ، ولكن المطلوب أساساً هو المعرفة .

المعرفة . وليس الاذاعات إياها ولا الصحف إياها ولا الوكالات إياها هي مصدر المعرفة الثورية في أي حال .

إيران .. مشهد .. الأهواز .. الكلام هنا عن الجماهير ، ولكثرة ما أتقنا الكلام عنها أنكرناها عندما رأيناها ، فمعذرة .

ويبقى أن الأخوة في إيران ، قيادة وجماهير ، أكدوا للأخ أبو عمار أن الانتصار الذي تم لن يكون ناجزاً على مستوى إيران نفسها ولن يكتمل على مستوى المهمات المطروحة على الثورة الإيرانية إلا إذا تم تحرير الأرض المغتصبة في فلسطين .

لأول مرة تشعر بالامتنان للثورة الصناعية ، لا لأنها أدت إلى تمركز الطبقة العاملة فحققت بذلك شروط الوعي الطبقي وأسست مرحلة جديده وهامة على طريق التحويل .. ولا لأنها حققت فائضاً في الانتاج ، أدت عملية البحث عن سوق لتصريفه فيما أدت إلى حالات من التوحيد القومي ، بلغت من تطابقها مع السياق التاريخي في أوروبا حداً أغرانا بالتقليد رغم التغاير الكامل أصولاً وفروعاً.

لأول مرة تشعر بالامتنان لهذه الثورة التي تطورت إلى حد أنها مكنتك من أن تصل إلى طهران والثورة فيها ما تزال حارة وطازجة.

وعندما تحييك الفانتوم منهية بالتحية لحظات من الرعب المشروع بالعادة ، تعود إلى بداوتك إلى يقينك بأن المفصل تحت ، على الأرض وأنه الانسان ، لا في المطلق ، بل في الأرض في حالة ما ، هي حالتك التي غادرتك يوماً ، أو انسلت منها مأخوذاً بحفنة من

الأوهام . إنها حالتك تأتي الآن اليها تستريح من عناء السفر في السراديب المعتمة .. السراديب التي فجرت ظلامها بحثاً عن الذات.. تقاطع فيك سارتر وماركس .. والذات تجري وراءك تتعلق بأذيالك فلا تراها ، وتفتح لك مركبات النقص ثغرات للضوء الرطب ، يأتيك فيعشيك فلا ترى .. إنك مسكون بوهم الرؤية .

هذه هي الفانتوم إذن .. هذا هو الجفاء .

وهذا هو الخميني .. هناك على الأرض ، على مقربة من قصر المرمر. هو فجر ؟ أم أننا كنا نسهر في نهار متواصل متعرج النور، توشي حناياه عتمات طارئة نظنها ليلا ، وننتظر الفجر يأتي من جهة أخرى ؟

كتبت بعض الصحف العربية في العام الماضي « أن عالماً سوفياتياً تنبأ بأن الشمس في أوائل الثمانيات سوف تشرق من الغرب » .

وبعد سقوط الحرس الملكي في طهران ، عاد كثير من العلمانيين إلى قراءة الجفر المنسوب زوراً إلى علي بن أبي طالب .. قرأوا فيه أن الخير يأتي من الشرق .

يقول الذين إكتووا بنار الغربة ، أقاموا طويلا في منحنيات النصوص .. وعادوا أخيراً إلى الوطن أرضاً وأهلاً وشعباً ... يقولون : إن الغرب ليس جهة في الجهات انه غير ذلك ، وكذلك الشرق .. ويبقى الجنوب جنوباً .

١٩ شباط ١٩٧٩

الفهرس